



يوم في أحراش أفريقيا

خالد سليمان

١٠٠ يوم

في أحراش أفريقيا

يقام
حامد سليمان



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩١

الاخراج الفنى : عمر حماد

الرجلة : بعدسة محمد سعيد

الاهداء

الى الأستاذ صلاح حافظ
رئيس تحرير آخر ساعة السابق •

والأستاذ محمد غانم
الرئيس السابق لمجلس إدارة شركة النصر للتصدير
والاستيراد •

فلولا تشجيع الأول • • ومساعدة الثباني • •
لما قدر لهذا الكتاب أن يرى النور •

ح • س

المقدمة

في مهمة صحفية لأفريقيا .. استغرقت ستة أشهر .. لم يكن مقدرا لى .. الا زيارة مدنها .. ومؤسساتها ولكن قدماى .. ساقتنى الى ادغالها .. لكتابة سلسلة من التحقيقات السياسية .. تسجل فترة التحول الهائل في حياة القارة .. من مرحلة العبودية والاحتلال .. الى مرحلة الحرية والاستقلال .. ولكن حاستى الصحفية .. دفعتنى دون أن أدري الى ادغال القارة واحراشها وفي هذه الأحراش الموهلة في بدائيتها وفطرتها .. في جنوب السودان .

برأيت « عراة »

وحضرت حفلا لتكريم « فتاة » حامل في برازيل .. والتقيت بملك .. ترفض زعميته أن يموت .. الا على يد زوجته !!

وهربت من بوليس الكونغو .. بعد اعتقال مفرغ .. ساقتنى اليه برقية من رئيس التحرير ..

وزرت وكمر ساحر يطحن « أمخاخ » الأطفال .. لاستخلاص مادة السحر الأسود القاتلة ..

وأذهلنى ثعبان عملاق .. داست عليه عجالات سيارتى
الأربع ومضى يواصل طريقه فى الغابة .. دون أن يلوى على
شئ ..

وهاجمنى طابور من النمل المتوحش فى أنجولا .. متخصص
فى قتل الأفيال و ... و ...

عاشت أهوالا .. وغرائب .. ومفاجآت .. كنت فى غنى
عنها ..

حيث كانت مهمتى محددة فى « رصد » التغيرات السياسية
والاقتصادية والاجتماعية .. التى حدثت لشعوب افريقيا ..
بعد حصولها على الاستقلال .. وهى مهمة - كما ترى - قشبية
ومريحة .. ولا تستدعى سوى بعض اللقاءات مع رؤساء
جمهوريات وحكومات هذه الدول .. فى حجراتهم المريحة المكيفة ..
مع بعض اللقاءات الأخرى .. فى الشارع الإفريقى ..
ولكن قاتل الله الفضول الصحفى ..

فخلال « سويكات » الراحة .. كنت لا أسمع عن ظاهرة
مثيرة .. أو شخصية غريبة الأطوار .. أو مكان تحيط به
أسرار .. الا وشددت الرحال اليه .. مهما تكلفت من جهد ..
كان هذا الفضول يسبقنى الى « المكان » .. فأنسى ما يحتاج
اليه الانتقال من « زمن » .. أو حجم ما ينتظرنى فيه من خطر ..
فلا استريح حتى أجد نفسى هناك .. وسط العديد من الأماكن
الموحشة .. والمشاهد المذهلة .. والمواقف الخرجة ..

وما ستقراه - بعد قليل - بين صفحات هذا الكتاب ..
من مشاهد .. ومواقف .. وقصص انما يدين - وقبل كل
شئ - لهذا الفضول اللعين .. الذى يلزم كل صحفى
ولا يتركه .. حتى آخر لحظة من عمره ..

حامد سليمان

المشهد رقم (١)

عراة فى جنوب السودان

✽ فى مدينة « واو » عاصمة المديرية الاستوائية من جنوب السودان .. كنت مستلقيا على سريرى .. فى احدى استراحات الجيش السودانى فى محاولة لالتقاط الأنفاس .. بعد مغامرة صحفية حاولت خلالها تغطية احدى معارك الجيش مع متمردي جنوب السودان .. عندما جاءنى مرافقى السودانى - محمد مدنى - ليعرض على الاستعداد لمرافقته فى رحلة صيد فى الأحراش ..

ودون تردد حاولت الاعتذار .. فلم تكن من مهام رحلتى تغطية مثل هذه الموضوعات الروتينية .. علاوة على أننى كنت استعد للسفر فى اليوم التالى لأوغندا ..

ولكنه استطاع أن يغير رأى بعد قليل عندما قال :

— أنت حر .. ولكن لا توجه لى أى لوم .. اذا أخبرك
العائدون من الرحلة أنه قد فاتك نصف عمرك .. كما تقولون
فى مصر ..

قالها .. وأسرع بالخروج من الحجرة بعد أن لمعت عيناه
بنظرة ذات مغزى .. وانفجرت شفاهه عن ابتسامة باهتة مأكرة ..
وفى دقائق .. وجدت نفسى أسبق حقيبتى الى سيارة
القافلة ..



مضت السيارة فى طريق ملتو بين أحراش السافانا
السودانية .. تسرع حيناً لتلهث وراء نمر فاجأته الطلقات ..
وتبطىء حيناً لتوجه حراها الجبابة الى فيل صغير .. وتتوقف
حيناً .. فى يأس ورتابة بعد أن تنبّهت الحيوانات المفترسة
وغير المفترسة .. وفزعت الى قلب الغابة تخفى وراء أشجارها
الكثيفة ..

وخلال الرحلة كان مرافقى يبادلنى نظراته المأكرة .. دون
أن يرد على سؤوال حبيس على طرف لسانى — ولكن أين ذلك
الشئ المثير الذى (لدغت) به فضولى .. ودون أن يتكلم
كانت شفاهه تنطق :

— انتظر وسترى ♦♦

وفجأة ♦♦ رأيت ما لم أراه سوى في أكثر الأحلام
والكوابيس ♦♦ غرابة واثارة ♦♦

مجموعة من الرعاة طوال القامة ♦♦ تسبقهم عدة مئات من
البقر ♦♦ النساء يحملن على رؤوسهم عيدانا من حطب الشجر ♦♦
والرجال يمسكون ببعض العصي الغليظة ♦♦ ووراءهم بعض
الصبية والأطفال ♦♦ والجميع بلا استثناء عراة ♦♦ كما ولدتهم
أمهاتهم ♦♦

لم أصدق في أول الأمر ♦♦ كان سواد بشرة الجميع يخدع
بصرى أحيانا ♦♦ ولكننى اكتشفت — بعد اقترابهم — أننى
كنت أحاول خداع نفسى لفرط الصدمة ♦♦

✳ ولست أدرى ♦♦

لماذا فقت دهشتى رؤية رجال عراة ♦♦ أكثر من رؤيته
بين النساء والأطفال ربما لأن براءة الطفل قادرة دائما على ستر
عورته ♦♦ ربما لأننى سمعت عن حفلات « الاستربتيز » التى
تتخلى فيها بعض نساء أوروبا ♦♦ حتى عن ورقة التوت ♦♦ فى
بعض الحفلات المأجنة ♦♦

ربما لأن النساء الذين شاهدتهم كانوا يعطون نصفهم
الأسفل ببعض أوراق الشجر ♦♦ رغم ضهورهم العارية تماما ♦♦

ولكن رؤية رجل عار تماما .. يمشى فى الطرق العامة ..
بين مراعى السافانا .. دون أن يشعر بأى خجل .. يتكلم ..
ويضحك .. ويركض وراء البقر .. ودون أن يشعر أنه عار
تماما .. فاق فى ذهنى كل ما أمتلكه من صور الخيال ..
بقدر ما أثار فى أعماقى كل ما أمتلكه من مشاعر الشفقة ..

و

لم تستطع عيناى متابعة المزيد .. من هذا العرض المروع
الذى كاد أن يغتال داخلى كل ما قرأته عن الفطرة والبراءة ..
وكل ما عرفته عن المقدسات والمحرمات ..

ولم أجد فى نفسى القدرة على طرح سؤال واحد على
مرافقى الجنوبى فى الرحلة .. رغم عشرات الأسئلة التى
انحشرت فى حنجرتى .. وكل ما طلبته من الجميع أن يسرعوا بى
فى العودة .. حتى أستطيع أن (أَلْمَم) أطراف مشاعرى
وهواجسى ..

وفى طريق العودة .. سمعت العديد من الاجابات التى
سبقت أسئلتى .. بعضها يصف الظاهرة .. وبعضها يعتذر
عنها .. وبعضها يبررها ..

✽ قالوا : ان هذه البقعة ليست فقط أكثر مناطق السودان
تخلقا .. ولكنها أكثر مناطق العالم بدائية .. وانعزالا .. وان

ما حدث بها .. كان جزءا من استراتيجية الانجليز في عزل الجنوب عن الشمال ..

✳ وقالوا ان حرارة الجو الشديدة .. هي التي دفعت سكان هذه المنطقة .. الى عدم احتمال أى شىء .. يلتصق بأجسامهم وبسرور القرون .. أصبح العرى جزءا من حياتهم العادية ..

✳ رغم انه لا قيود على الجنس .. فقد تسبب هذا العرى .. فى اصابة معظم رجالهم - ونسائهم - بالبرود .. وان العريس يعاني ليلة الزفاف من هذا المرض .. ويستعان على ذلك بالسحرة وبطقوس عنيفة من الرقص والاغراء من جانب العروس .. حتى يستطيع الرجل .. أن يصل الى الوضع الطبيعى الذى يمكنه من الانجاب .. اذ ماذا يثيره فى المرأة .. وفى فتاته وهي عارية باستمرار أمامه .. ومنذ مولده ..

و .. لم أجد فى نفسى رغبة فى ان استمع للمزيد ..

بقدر ما دفعتنى .. هذه المشاهد التى رأيتها بعينى .. وهذه الغرائب التى سمعتها .. الى معرفة الأسباب التى تختفى وراءها هذه الظاهرة الموهلة .. فى الاثارة والغربة والدهشة ..

✳ ووجدت نفسى اتساءل :

لماذا ؟

لماذا بقى هذا الجزء من السودان هكذا ؟

— لماذا بقى هذا الجزء من العالم .. يروح تحت عبء
هذه الحياة الموهلة فى البدائية والعمرى ..

((جريمة بشرية))

والجواب ..

بإختصار وبدون الغرق فى التفاصيل ..

لأن الانجليز أرادوا ذلك .. لقد وجدوا ان الشمال ..
مرتبط — لا محالة — بحكم روابطه الدينية واللغوية — بالعالم
العربى .. كما لاحظوا أن المد الشمالى الحضارى يمكن أن
يتسع بين الجنوبيين ..

الاسلام كان ينتشر فى سهولة عن طريق التجار وكذلك
اللغة العربية .. فتعاليم الاسلام تجد استجابة بين زنوج الجنوب
لانها لا تفرق بين أبيض وأسود .. واللغة العربية هى لغة
هذا الدين .. وقد لاحظ الانجليز أن الشعوب العربية التى
خضعت لهم .. لم تندمج معهم حضاريا كما حدث لمعظم الدول
الافريقية وغير الافريقية فالمصريون والعرب .. لهم حضارتهم

ولثقافتهم ولفتحهم العريضة .. وخاف الانجليز أن يمتد هذا
« التمرد الحضارى » الى هذه المنطقة ..

ووضعت الخطة لوقف هذا المد الشمالى الحضارى حتى
السيطرة الانجليزية التى تريد أن يظل الجنوب تابعاً لها ..
وساعدهم على ذلك أن معظم قبائل الجنوب ذات حضارات
بدائية يمكن السيطرة عليها وطبعها بالطابع الذى يريدونه ..
ووضعت الخطة لفصل هذا « الكيان القبائلى » البدائى
الجنوبى عن الشمالى ..

وليت الأمر توقف عند ذلك .. كان فى الامكان فصل
هذا الجزء الجنوبى .. وتطويره .. وطبعه بالطابع الاوروبى ..
ولكن لانهم بعملية حسابية « غير مخلصة » وجدوا ان هذا
سيستغرق منهم الكثير من الجهد والمال لشدة تأخر الجنوبيين،
ولسكانهم فى مناطق يصعب الوصول اليها .. فقرروا ايقاف
عقارب الزمن فى هذا الجزء من العالم .. وتركهم على ما هم
عليه .. وفى هذا وحده خلق « الكيان المتخلف » عن الشمال
المتحضر .. وبما ان هذا يتفق مع الهدف الانفصالى
فلا داعى - اذن - للتكاليف ..

ولاحكام الخطة فقد فرضوا ذلك الحاجز المنيع بين
الشمال والجنوب حتى لا تتم أى حركة « تعريب » فى الجنوب

أو « أسلمة » عن طريق التعليم على المنهج العربي والدين
الاسلامى والتجارة والهجرة وتبادل الموظفين بين الشمال
والجنوب ♦♦

وفى الوقت ذاته أطلقوا العنان لهيئات تبشيرية مشبوهة
لنشر اللغة الانجليزية والدين المسيحى بينهم مع التركيز - بين
الدروس - على بث سموم الكراهية بين أطفال الارساليات ضد
الشمالين وتجسيم الفروق بين الطرفين لتضخيم الشعور بالكيان
المنفصل ♦♦

وهنا فرضت الهيئات التبشيرية نفسها كأقوى وأنسب
« برفان » لتنفيذ تلك السياسة ونجاحها ♦♦ فكانت العلاقة
بينها وبين السلطات الانجليزية الحاكمة مباشرة ومتينة وأغدقت
عليها هذه السلطات الأموال لتعمل فى ميادين التعليم والصحة
والنشاطات الاجتماعية فصادت نجاحا هائلا ، وفالت ثقة
المواطنين البسطاء فى الجنوب ، واستولى العاملون بها على
عظمتهم وحبهم ، ومما ساعد على ذلك أن الحكومات المتعاقبة
كانت تسير فى أغلب الأحيان فى الطريق الذى ترسمه لهم هذه
الارساليات •

وهكذا تضافرت كل هذه العوامل ♦♦ وتخمرت كل هذه
العناصر لخلق هذا الكيان المختلف فى جنوب السودان ♦♦
وخرج الانجليز وخلفوا وراءهم هذه التركة المثقلة ♦♦ المتمثلة فى
هذا الجزء المختلف الذى يطل نحو الشمال بعيون يملؤها

الشك .. وبعواطف تنمرها الكراهية .. وبولاء بعضه مندفع نحو جهات أجنبية مما أدى في النهاية الى احداث الانفصال .. التي بدأت بتمرد بعض ضباط وعساكر الجيش والبوليس الجنوبيين ، وانقضاضهم المفاجيء على مدينة « جوبا » عام ٥٠ على الشماليين لتشهد المدينة ومن بعدها كل مدن وقرى الجنوبيين مذابح رهيبة ما زالت آثارها موجودة حتى الآن .. على يد منظمات التمرد بدء بـ « أنانيا » واحد .. و انتهاء بجيش جون جاراج الذي مازال يثير الرعب في الجنوب والشمال ..

« من هم الجنوبيون »

والآن .. نعود لسؤالنا :

ولكن من هم الجنوبيون ، من هم هؤلاء المتمردون ، من أين جاءوا .. وما هي أهم قبائلهم .. وما هي أغرب عقائدهم وعاداتهم .. وهل هم — حقا — عنصر مختلف عن الشمال .. والواقع انه لا يعرف على وجه التحديد كيف استوطنت هذه القبائل مناطقها الراهنة في الجنوب ..

وكل ما عرف حتى الآن انه قبل ١٥٠٠ سنة قامت جماعات افريقية بتحركات واسعة طلبا للمرعى .. وقامت بين هذه

الجماعات حروب طاحنة قبل أن تستقر في أماكنها الحالية ••
وبالنسبة لقبيلة « الشلك » أشهر قبائل الجنوب - فقد
تحركت من بحيرات فيكتوريا والبرت وزحفت نحو الشمال
لتستقر على النيل حول « ملكال » في جنوب السودان ••
أما جماعة « الباريا » فقد تحركت من شرق إفريقيا ،
وشقت طريقها بحد السهام الى أن استقرت في المنطقة الواقعة
ما بين « ياي » و « جوبا » قرب الحدود بين أوغندا
والسودان ••

ويأتى بعد ذلك قبائل « الزاندى » قصار القامة الذين
نزحوا في جماعات كبيرة من الكونغو حتى استقروا حول
« مريدى » و « أنزاتر » في جنوب وغرب السودان ••
وهكذا ، حتى أصبح الجنوب الآن يحوى أكثر من أربعين
قبيلة ، أشهرها الشلك والنوير والدنيكيا •• الى جانب السباريا
والدنيجا ، مولى ، وأشولى واندوفو وكاكواكوكو
وتبوسو ومادى وحور ••

ومعظم هذه القبائل يحكمها اما ملوك أو سلاطين ويأتى
بعد الملك أو السلطان الساحر أو « الكوجق » بلغة أهل
الجنوب وهو الرجل الذى يسقط المطر ، ويعالج المرضى
ويقيم الحفلات الدينية ، ويهايه كل كبير وصغير بما فيهم الملك
نفسه ••

والواقع أن حضارة هذه القبائل مختلفة تماما من حيث
العنصر واللغة والعادات والتقاليد عن كل ثقافة وحضارة
الشمال ..

فالحياة هنا تحت خط عرض عشرة مختلفة جدا جدا ..

فمثلا مكانة الرجل - أى رجل - فى الجنوب يحددها
عدد ما يملكه من الأبقار ، فهو يأكل بها ويشرب من لبنها ويحارب
بعظامها ويتزوج بتقديم العديد منها لأهل العروس ..

وقد يدفع العريس مائة بقرة مهرا لفتاة أو أكثر .. فإذا
عرفنا أن ثمن البقرة فى الجنوب عشرون جنيها فإن هذا يعنى
أنه يقدم ٢٠٠ جنيه مهرا للفتاة .. ولكن اذا قسنا ذلك بثمن
البقرة فى مصر ، فإن هذا يعنى أن ثمن فتاة الجنوب غال
جدا .. حوالى ٢٠٠ ألف جنيه مثلا ..

ولذلك فإن معظم قبائل الجنوب يقدسون البقرة ،
ويحبونها ويدللونها ويتغنون بجمالها وتكوين قرونها .. ورشاقة
حركتها ..

ومكانة البقرة بالنسبة لرجل الجنوب تكاد تفوق مكانة
الجاموسة بالنسبة للفلاح المصرى .. كما أن أهميتها لحياته
تفوق لديه أهمية المرأة .. أى امرأة ..

« حرية .. وليست اباحية »

والمرأة في معظم قبائل الجنوب ، تقوم بمعظم أعباء الحياة
عدا الحرب .. فهي تدير شئون « القطية » وهي المنزل الذي
يعيش فيه معظم الجنوبيين ..

وتشارك الرجل في أعمال الرعى ، وتقوم وحدها بعملية
التسويق والشراء لحاجات البيت ..

ولذلك فهي تتمتع بمجموعة هائلة من الحريات وخاصة في
مسألة الحب والزواج ..

ان عادات بعض القبائل وقيمها الدينية لا تحرم عليها أن
تمارس الحب مع من تشاء من شباب القبيلة ، ولكن على الشاب
اذا تسبب في حملها ولم يرغب في الزواج بها ان يدفع لأهلها من
سبع الى عشر بقرات ترضية لها .. اما اذا كان الاتصال بامرأة
متزوجة فيجب أن يدفع للزوج ما يطلقون عليه غرامة « كسر
البيت » من الأموال والأبقار ..

وللفتاة عادة أن تصادق من تشاء من الفتيان ، ولكن عندما
يتقدم شاب لخطبتها فان عليها أن تأخذ رأي أبويها - خاصة
بين القبائل النيلية - لأن ما يدفع لأبيها كمهر من الأبقار

يستخدم في تزويج واحد من اخوتها الذكور ، وفي حالة فشل الزواج فعلى هذه الأبقار أن تعود مرة أخرى للزواج المطلق ، ومعنى هذا أن على أخيها أن يسترجع هو الآخر أبقاره من أهل زوجته .. ولذلك يجب « التدقيق » في الاختيار .. فهناك منزلان في طريقهما للانهيـار في حالة فشل الزواج الأول .. كل شيء كما ترى .. مختلف جدا ..

« زوجات الأب »

في إحدى القبائل نرى الزواج بين الأقارب غير مسموح بشكل عام .. ولكن الأقارب بالنسب يسمح لهم بذلك .. فالشباب يسمح له بالزواج من زوجة أبيه .. وقد نشأت هذه العادة لأن الشاب في قبيلة الجنوب ينشأ عادة في منزل فيه أم واحدة وأكثر من زوجة أب - فالأب مسموح له بالزواج بأي عدد يشاء من النساء وبذلك فكل بيت يحوى شابا كثيرين .. وزوجات أب أكثر .. وقد سمحت القوانين بالزواج بينهم خضوعا لحاجة البيئة .. فمن الذى يرى كل هذا العدد من زوجات الأب بعد وفاة الأب .. أو مرضه .. أو عجزه ..

والأولاد المراهقون ينامون مع الأبقار في مراتبها
« اللواك » أما .. المراهقات ، فانهن ينمن في أى منزل خال
كمجموعة لو كان عددهم كبيرا ..

ولا يوجد أى نوع من الحرج في خروج البنت مع أى
صديق من القبيلة تختاره لحفلات السمر والرقص والغناء
بل .. ومطارحته الغرام ..

وهذه الصداقات المبكرة تقود عادة للزواج ، أما لو أراد
الشاب أن ينفرد تماما بفئاته ، فانه يذهب بها سرا الى مكان
بعيد في الغابة حيث يقضيان كل الليل .. دون أى تدخل
أو غضب من الأباء ..

نقف هنا لنقول ان الزائر المتعجل لجنوب السودان - خاصة
من البلاد العربية - يتسرع في الحكم على هذه التصرفات
ويصفها بالاستهجان والاباحية .. وهذه الحريات التي تمارسها
فتاة جنوب السودان ليست لها أى علاقة بالاباحية أو الاستهتان
من قريب أو بعيد ، فليس في قوانينهم ولا في تعاليم عقائدهم
بند واحد يحرم هذه المسائل .. انهم ليسوا مسلمين ولا مسيحيين
ولا يهودا .. وانما تنبع قوانين الخير والشر لديهم .. من
احتياجات البيئة نفسها .. ومن معتقداتهم البدائية والوثنية
القديمة ..

فمثلا الجنوبيون عددهم بشكل عام قليل .. يعيشون في
مساحة شاسعة من الأرض .. تهاجم الامراض الكثيرة أطفالهم

فلا يفلت منهم سوى القليل حتى يقف بجانب والده يساعد
في الرعى .. فلماذا تكون - اذن - هناك قوانين تحد من
الاتصال الجنسي .. وتحد من الزواج .. وتعرقل العلاقات
بين الجنسين ..

الجو هناك في معظم أوقات السنة حار .. والرطوبة عالية
جدا ومعنى هذا أن يصبح الجو خائفا .. فلماذا تكون
هناك - اذن - ملابس على الأجساد وهكذا ..

يجب الا ننظر لحياة هذه الفئات من خلال قيمنا ومناخنا
وعاداتنا وتعاليم أدياننا .. فهذه « القيم » ليست لديهم أصلا ..
ولم تصل لهم وتأثيم هذه « القيم » هو نوع من التشدد
يتناقض مع الآية الكريمة « وما كنا معذبين حتى نبعث
رسولا » ..

وهذا لا يعنى الموافقة على استمرار تخلف هذه القبائل
الفكرى والحضارى والاجتماعى والثقافى والسياسى .. واذا
كان الانجليز قد أوقفوا عقارب التقدم فى هذه المنطقة الى ما قبل
مرحلة الصيد لتحقيق هدف محدد وهو فصل الجنوب عن
الشمال .. فليس هناك ما يبرر استمرار هذا التخلف فى هذه
المنطقة من العالم ..

و .. هذا ما تفعله حكومات السودان منذ الحصول
على الاستقلال .. وبالنسبة للكبار فقط .. صدرت الأوامر
تحرم على المرأة منهم دخول المدن وهى عارية ..

وبالمناسبة .. بدأت ظاهرة « العرى » في جنوب السودان تنحسر وتقل .. نظرا لوجود عدد كبير من نساء الشمال في الجنوب وقد بدأت فتاة الجنوب تقلد أختها في الشمال وترى في ارتداء الملابس شيئا جميلا .. وفي كل نواحي الحياة .. تحاول حكومة السودان ازالة تحركات العرى والتخلف ..

« التسامح الدينى »

واهتمت حكومات السودان اهتماما خاصا بالمسألة الدينية في الجنوب .. فقد استهدفت السودان حملات ظالمة تقول ان هناك محاولات « رسمية » لمحو الدين المسيحى هناك وبالطبع .. كانت هذه دعاية استعمارية مقصودة لزيادة اشغال نيران الانفصال في قلب المسيحيين الجنوبيين .. فالمعروف ان السودان يؤمن ايمانا مطلقا بحرية العقيدة والعبادة لكل فرد .. وهذا المبدأ منصوص عليه في دستور البلاد ..

وقد شاهدت بنفسى كيف يمارس المسيحيون في الجنوب شعائر دينهم في حرية تامة .. وأى انسان يتجول في مدن ملكال وجوبا وقراها المجاورة .. يلحظ لأول وهلة أن عدد الكنائس بها يفوق عدد المساجد ..

ففى الجنوب يوجد الآن أكثر من ٨٧ كنيسة يعمل بها أكثر من ١٠٠ قسيس سودانى .. وأكبر دليل على أن الحكومة ساهمت فى خدمة هذه الكنائس أنها أنشأت معاهد للتدريب الدينى ، كما سهلت اجراءات السفر بالنسبة للطلبة الجنوبيين لتلقى المزيد من الدراسات الدينية فى علم اللاهوت بالجامعات المتخصصة فى الخارج لمد الكنائس بحاجتها المستمرة من القساوسة ..

كل ما هنالك أنها فى عهد نيمرى أخرجت القساوسة الأجانب الذين كانوا يغرسون بذور الكراهية فى عقول الجنوبيين بدلا من تعاليم المسيحية ..

ولسد هذا النقص فالحكومة تسمح بقبول أساتذة مؤهلين من البلاد الاريقية والعربية للتدريس بمعاهد الجنوب الدينية .. وهكذا • بمثل هذه الخطوات الايجابية تحاول الحكومة السودانية .. تدمير بذور الانفصال من أساسه وكذلك تضييد جراحه .. وعلاجه على المدى الطويل والقصير فى الكبار والصغار على السواء ..

وكل ما تفعله حكومة السودان بالنسبة للكبار هو تقديم المزيد من الخدمات لهم عن طريق انشاء عشرات من أحدث المستشفيات والوحدات الاجتماعية ..

أما بالنسبة للصغار .. فإن الحكومة تعمل على تعليمهم

في مدارس الحكومة - بجانب أطفال الشماليين - من خلال
تقس منهمجهم .. حتى تنقل حياة الجنوب من عصر الكهوف الى
العصر الحديث ..

ولم يكن أمامها - ولها العذر في ذلك - سوى الاتجاه
للأطفال فالكبار - معظم الكبار وليس كلهم - يعيشون في أدنى
مراحل التخلف ، ومن العبث الاتجاه معهم .. ومحاولة
ادماجهم تحت أى اطار أو داخل أى صورة من صور الحياة
الحديثة .. فما بالك لو حاولت افهامهم مثلا انهم مواطنون
يعيشون داخل اطار دولة واحدة .. ووطن واحد .. من
مؤامرات الامبريالية العالمية ..

كلمات وتعبيرات تفصلها عن اذهانهم آلاف السنين من
التخلف .. ولذلك كان الاتجاه للأطفال .. والمدرسة
الأولية .. والمنهج الواحد .. واللغة الواحدة ..

زرت واحدة من هذه المدارس في مدينة جوبا قبل
سيطرة جارانج على مدن الجنوب .. وشاهدت بعيني كيف
ينتقل أطفال الجنوب من حياة الغابة .. الى حياة
العصر .. وكيف تحدث عملية الادماج بين الجنوب والشمال
بلا صعوبة .. وبلا كلام كثير .. وبلا مؤثرات سياسية
وبلا أبحاث في تاريخ الانفصال .. وأسبابه .. كل شيء هنا
يمضى في الطريق الصحيح .. وبلا ضجة ولا افتعال .. والمدرس

هنا هو جندى الادغال المجهول الذى يقوم بأعظم عمل حضارى
وسياسى فى نفس الوقت .. انه يغرس بذور الحضارة والوحدة
فى صمت .. بعيدا عن المعارك .. وحوادث الارهاب ..

اقتربت من أحد الفصول .. كان يحوى حوالى ٤٠ طالبة
من جنوب السودان فى المرحلة الاعدادية .. وكان تأثرى بالغما
عندما سمعتن يغنين هذه الأنشودة :

انا طالبة سودانية
أعيش فى الجبهة الاستوائية
أحب اللغة العربية
فى الكنيسة الأجنبية
تعلمت الانجليزية
علمونى .. ما تنوسنى
وان غلطت سامحونى

كانت الأنشودة تخرج من أفواه فتيات الجنوب فى حزن
عميق .. تقول مالى .. ومال الانفصال .. وما ذنبى وأنا أتكلم
العربية الركيكة .. لقد أرغمونى على تعلم الانجليزية منذ
طفولتى فى الارساليات .. حتى يصعب تفاهى معكم ..
ولكننى - فى النهاية سودانية - علمونى ما تنسونى فليس لى
ذنب فى كل ما يحدث .. بل ليس للجنوب كله ذنب فيما حدث ..
لا تحكموا على تخلفى وعرى قبيلتى .. قبل أن تعرفوا سبب
المأساة التى يعيشها شعبى ..

المشهد رقم (٢)

لقاء مع أغرب ملوك الدنيا

وفي جنوب السودان التقيت بأغرب ملوك الدنيا ..
 وأكثرهم عددا لزوجاته .. وأقلهم معرفة بما يجري حوله ..
 وأعظمهم احتراماً من رعيته .. وأبسطهم منظراً في مظهره
 ومسكنه .. ورغم ذلك فهو ملك ابن ملك ، وله « حقه الآلهى
 المقدس » فى مملكة صغيرة لا يزيد تعداد سكانها على ١٠٠ ألف
 نسمة .. غير أن عدد عجائب هذه المملكة يزيد على هذا الرقم
 بكثير ..

حتى نلتقى به كان علينا أن نركب النيل لمدة يومين فى
 منطقة المستنقعات الكبرى فى جنوب السودان .. وأن نعرف

— مقدما — أن هذه المركب قد تواجه ظروفًا حرجية •• تتمثل في أطنان من نبات ورد النيل •• التي تعترض طريقه •• وتهدد المحرك بالتوقف في أي لحظة •• وفي أي مكان مهجور ••

وحتى تقبل هذه المخاطرة •• فقد كان لابد لنا من دافع قوى يجذبنا إلى شرك هذا المشوار اللعين •• والواقع أن هذا الدافع كان موجودا •• ويتمثل في عشرات الأساطير والحكايات الخيالية التي سمعناها عنه •• عن ملك الشلوك •• أو « رث » الشلوك •• أو رئيس قبيلة الشلوك •• واحدة من أهم القبائل المنتشرة في جنوب السودان ••

المركب يمضي ببطء •• وبجانبى شاب متعلم من جنوب السودان ومن قبيلة الشلوك بالذات •• بعد لحظات ضاع الاحساس « بنشوة » اندفاع المركب على سطح النيل •• فقد بدأ الملل يتسرب إلى نفوسنا ويتراكم مع تكرار المناظر الرتيبة حولنا •• لولا أن صاحبي « الشلوكي » بدأ في الكلام •• أو بمعنى أدق بدأ في الإجابة على أسئلتى •• وكانت كلها تدور حول ملك الشلوك •• وقبيلة الشلوك •• ومن خلال إجاباته فهمت أشياء كثيرة متناثرة ••

قال مرافقى : لقد جاءت هذه الأسر الشلوكية تحت قيادة البطل المشهور « نيا كانج » أول ملوكهم •• وكان يسكن في الماضي مع ابن أخيه شرق بحيرة فيكتوريا •• فشب بينهما

خلاف وعداء .. اضطره للنزوح الى الشمال حتى وصل الى موطنه الراهن في جنوب السودان ..

وفي رحلته الشهيرة هذه التف حواه الناس ، وساروا تحت قيادته .. كما استطاع بسحره - كما تزعم أساطيرهم - أن يغير الكثير من الحيوانات التي التقى بها مثل أفراس البحر والتماسيح .. ومختلف الحيوانات الأخرى .. الى آدميين ليصبحوا أعوانا مخلصين له وليزيد به من قوة شعبه وتعدادهم (!)

ومن بين جميع الحيوانات التي تتعامل معها القبيلة .. تحظى الأبقار بمكانة خاصة بل وتقدر - كما ذكرت - مكانة الرجل الاجتماعية في القبيلة .. بعدد ما يملكه من الأبقار .. وليس للضأن أو الماعز نفس الاحترام والتقدير الذي يولونه للأبقار ..

ولذلك .. فان مسئولية حلب هذه الأبقار لا توكل للنساء .. وانما تقع على عاتق الرجال والصبيان .. « تكريما » لمكانتها في معتقدات الشلوك ..

وفي كل قرية مكان لمبيت الأبقار خلال الليل .. وعندما تهاجم أسراب الناموس أهالي القرى توقد النيران « بروت الأبقار » لطرد جماعات الناموس .. وفي الصباح يسمح الرعاة أجسامهم العارية برماد الحريق حتى يمنع عنهم لسعات الناموس في الليلة التالية ..

حق مقدس

وللك السلوك سلطات مطلقة من الناحية الدينية والدينية ، وحقه « الالهى » فى وراثة العرش حق ثابت وراثى وشرعى لا ينازعه فيه منازع .. ولهذا « فالشلكاوى » يقدم أقصى فروض الولاء والطاعة والاحترام للملك .. وفى الماضى القديم لم يكن يسمح للملك بخوض المعارك والحروب خوفا على حياته .. فالملك فى عقيدتهم .. لا يموت .. ولكن يختفى .. ولذلك يجب الا يخوض الحرب .. أو يتعرض للقتل من الأعداء !! ومخاطبة الملك لها اتيكيت خاص .. وحتى أبنائه يجلسون القرفصاء عندما يدخلون عليه قبل أن يتفوهوا بكلمة واحدة .. وعندما يهيمون بالحديث يغطون أسفل الوجه باليد اليسرى ويديرون رءوسهم نحو اليمين ولا ينظرون اليه مباشرة ..

وقد ذكرت لى أرملة أحد الملوك الكبار بأنها كانت تقدم الأكل للملكها وهى باركة على ركبتها ، وعندما تضعه أمامه تتراجع بسرعة الى الوراء .. وهى تحبو على ركبتها لتجلس بعيدا عنه مديرة وجهها ناحية اليمين .. تجلس ثم تكشف له عن ساقها حتى ينتهى الملك من طعامه ثم تقوم لتغسل له يديه ..

لا زواج لبنات الملك

وفي حوار مع ابنة الملك التي تصادف سفرها معنا على نفس المركب .. ذكرت لى عن ملك الشلوك .. حقائق أغرب من الخيال .. فالملك لا يتزوج من بنات العائلة حيث تربطه بهن صلة دم بل يتزوج - عكس معظم القبائل البدائية - من بنات الشعب ، وكذلك يفعل كل رجال العائلة المالكة !!

والملك بخلاف عامة الشعب لا يحترم الحماة ولا يتفادى مقابلتها كما يفعلون ، بل يعاملها معاملة الأخريات .. أما الشلكاوى العادى فانه يبالغ فى احترامها لدرجة أنه لا يجلس معها فى منزل واحد .. ولا يستطيع أن يأكل معها وعليه اذا التقى بها فى الشارع أن يترك لها هذا الشارع ويهرب فى منعطف أو يختفى وراء شجرة ..

✽ ولنرجع مرة أخرى الى العائلة المالكة ..

ان للملك عدة زوجات قد يصلن الى السبعين زوجة .. ولكن على هؤلاء الزوجات جميعا أن يخضعن « للقديمة » .. أى لأولى زوجات الملك .. ووظيفة هذه القديمة - بصفتها أكبرهن سنا وأقدمهن معاشرة له - أن ترشد الزوجات الجدييدات الصغيرات الى ما يحبه الملك وما يكرهه من المأك

والمشرب و .. الجنس وتعامل هذه الزوجة باحترام شديد
من الجميع حتى من الملك ..

✳ أما بنات الملك .. فان أمرهن يشير الدهشة ..

لقد سبق أن قلنا ان بنات الملك لا يتزوجن من العائلة
المالكة ، اذ أن رجال العائلة لا يتزوجون من القريبات بصلة
الدم ..

وبنات الملك - فوق هذا - محرم عليهن الزواج من عامة
الشعب .. كرجال العائلة المالكة .. حتى لا يمزج الدم الملكي
بدم السوق .. اذن فمن يتزوجن *

قانون العائلة يحرم على بنات الملك الزواج على الاطلاق ..
ربما هذا القانون آخذ في التغيير الآن مع التطور ولكن هذا
هو قانون السلوك حتى الآن .. ولذلك من الطبيعي - ازاء
هذا القانون - أن يسمح لبنات الملك باختيار من يشأن من
العشاق ، وحتى لو كان هذا العشيق أخا لها من العائلة
المالكة .. على شرط أن يكون هذا الأخ من زوجة أخرى ..

وبالطبع قد نجد هذا غريبا بالنسبة لتقاليدنا وقيمنا
الدينية .. ولكن قد نزول دهشتنا تماما اذا عرفنا أن هؤلاء
لا يتبعون أى دين سماوى .. وأنهم من عباد أرواح الاسلاف
وخاصة .. أجدادهم العظام ..

أذن فمسألة الزواج بين الأقارب في العائلة المالكة - كما قلنا - غير مسموح به .. ولكن سنجد انه مسموح به في حالة القرابة بالنسب ..

فمثلا الأراامل من زوجات الأب يمكن أن يتزوجن من أبناء الملك من زوجات أخريات .. كما يسمح أيضا - في عرف القبيلة - للأبناء بمصاحبة زوجات الأب .. وفي هذه الحالة تختار زوجة الأب لمخاطبة الابن الذي يصاحبها الألفاظ التي تشير الى انه زوجها المقبل ..

✳ هذا بالنسبة للكبار ..

أما الشباب فان لهم عالما مختلفا ..

فالمرهقون من أبناء القبيلة ينامون مع الأبقار في مرابطها « اللواك » أما المراهقات فانهن ينمن كمجموعة في أى منزل خال ..

وتخرج كل بنت مع صديقتها للسمر والرقص والغناء ومطارحة الغرام .. وهذه الصداقات المبتكرة تقود عادة الى الزواج مستقبلا ..

أما اذا أراد الشاب أن ينفرد تماما بفتاته فانه يذهب بها سرا الى مكان بعيد في الغابة حيث يمضيان الليل كله .. وعادة لا يتدخل الآباء في مثل هذه الحالات .. ولا يشعرون أن هناك شيئا - غير عادي - قد حدث ..

وازاء هذه الحرية .. فان الفتاة هناك تغير من عشاقها ..
حتى تعثر على الشاب المناسب .. ولا يعتبر هذا عيبا فيها الا اذا
اتخذت من هذه المسألة « عادة مستديمة » وأكثر من تغيير
عشاقها ..

فاذا بلغت الفتاة رقم عشرة من عدد العشاقها سميت
« نياوى كوان » أى فتاة متقلبة ومتهورة — فقط متهورة —
هذا كل ما تنهم به لا أكثر فلا يوجد بين « صحائف » أساطيرهم
الموروثة .. ما يحرم مثل هذه العلاقات ..

والخطبة تحدث فى القبيلة فى وقت مبكر جدا .. ولكن
هذا الارتباط المبكر عرضة للفسخ .. وللفتاة الحق فى الغاء
خطبتها عندما تصل الى سن الزواج ..

والرأى العام فى القبيلة ناضج جدا .. من هذه الناحية ..
فهو يحتقر ويدين الفتاة التى تختار زواجا غير مناسب لمجرد
ثرائه وامتلاكه عددا من الأبقار .. بل ان الفتاة — فى نظرهم —
يجب أن تتزوج من تحب ومن له قيمة وفى السن المناسب لها ..

* المهم ..

انه عندما يتم الاتفاق النهائى — بين الشاب والفتاة طبعاً —
يذهب العريس للأب للاتفاق على الزواج والمهر وعدد الأبقار
الذى سيعطيها للأب .. وفى ذلك اليوم يذبح الأب شاة للعريس

وضحبه •• ويقطع جزءا من أذنها ويربطه على ساق الخطيبة ••
وبعد ذلك يتلو صلاة قصيرة تقربا لروح الجد الأكبر نيا كانج ••
ثم •• تبدأ بعد ذلك رحلة الزواج •• وتكتب أولى
صفحات قصة جديدة لأسرة « شلوكية » جديدة •

سأهرب من زوجاتي

وصلنا أخيرا بعد رحلة مرهقة الى قرية « كودوك » مقر
« الرث » أو ملك الشلوك •• قصر الملك على هيئة فيلا بسيطة
على مرتفع بعيدا عن مساكن كل أهالى القبيلة •• الفيلا بها
سلاطين القبيلة وأعوان الملك •• وهو جالس فى نهاية صالة
واسعة •• على كرسي متواضع جدا •• ولكنه مرتفع •• وبعد
الترحيب بنا •• أخذنا الملك لمائدة الأكل مباشرة بحجة اننا
لم نأكل شيئا طوال الطريق •• بعد اللقمة الأولى رفض
محمد سعيد - زميلى المصور - أن يواصل الأكل خوفا على
حياته •• فقد كان الأكل كله له طعم غريب جدا ومثير للغثيان ••
دفعنى الجوع للاستمرار فى الأكل وليحدث ما يحدث •• الكل
يأكل فى اندفاع غريب •• المائدة بسيطة جدا •• والأكل
أبسط •• والأيدى كثيرة •• تمتد فى نهم •• و « تلفوص »

ثم تعود الأصابع العارية الى الأفواه .. وهذه « اللغوصة »
كانت بسبب أن الطبق الرئيسى كان يشبه « فتة ملوخية » ..
ولكن من نبات له طعم « زيت الخروج » .. وبعض اللحوم
النيسة .. التى تحتاج لأنياب أسد جائع لافتراسها ..

وبدأ الحديث بينى وبين الملك متقطعا .. فقد كان محمد
سعيد يشير من حين لآخر على بطنه الخاوية .. مشيرا الى أنه
جائع ومضرب عن الطعام .. بسبب هذه « الأصناف » المثيرة
للغثيان التى قدمت لنا .. ولكن كان لابد من الاستمرار ..

✽ قلت للملك :

— من هو الالهكم ؟

فقال فى صوت كالرعد :

— نيا كانج ..

— أين مكانه ؟

— فى السماء ..

— ولكن من هو ؟

— انه أرواح أجدادنا المجسدة فى الحيوانات المقدسة ..

— وما هى حيواناتكم المقدسة ؟

— فرس البحر والتماسيح والنعام ..

— ماذا تحرم الهتكم ؟

وبدا كأنه لم يفهم سؤالى .. وحاولت أن افهمه ماذا
يعنى الحرام والحلال عندنا ..
فقال :

— لا شيء محرم عندنا ..

— لا شيء على الاطلاق ..

وعاد يتذكر .. ثم قال :

— شيء واحد .. تذكرت انه الاقتراب المحرم من
أمهاتنا .. أما بعد ذلك فكل شيء حلال ..

— سمعت أن لك عددا كثيرا من الزوجات ..

— حوالى سبعين ..

— سبعين ؟ كيف يمكنك ان ترضى هذا العدد ؟

ومرة أخرى بدا كأنه لا يفهم كلام المترجم .. الذى كنت
أسأله بالانجليزية ويكلمه بلغته البدائية .. ويبدو أنه أخيرا فهم
قصدى بالضبط .. فأخذ يقهقه فى ضحكة مجلجلة .. قائلا فى
لهجة لا تخلو من الفخر والثقة :

— اتنى متأكد انهن جميعا راضيات .. فليس فى مقدور
كل فتاة أن تصبح زوجة لى .. زوجة للملك ..

— وبناتك .. هل صحيح انه محرم عليهن الزواج تماما ؟

ـ المفروض ان هذا هو قانون العائلة المالكة .. ولكنه
يتغير ببطء .. وأنا شخصيا لا مانع عندي من تزويج بناتى من
الشباب الذى اعتقد أنه مناسب *

ـ اذا تقدمت لاحدى بناتك فهل تقبل ؟ وهل تسمح
قوانينكم ؟

ـ اننى اعتقد انك انسان مناسب .. وعلى هذا الأساس
فأنا موافق ..

وكانت كارثة ..

عندما اكتشفت أن الرجل فهم سئوالى على انه عرض
للزواج .. وبعد مناقشة طويلة افهمته اننى متزوج .. ففوجئت
به يسأل :

ـ ألا يمكنكم هناك الزواج بأكثر من واحدة ؟

ـ لنا أربع ..

وسمعتة يردد معبرا عن عميق رثائه :

ـ أربع فقط .. !!

وحاولت أن أخرج من هذا الموضوع فأنثرت له نقطة
أعرف أنها تثيره :

ـ هل من حق الملك أن يحارب ؟

— لا ..

— لماذا ؟

— لانه ليس من حق الملك أن يعرض نفسه للموت ..

— وهل من حق الملك أن يمرض ؟

— لا ..

— لماذا ؟

— لانه ليس من حقه — كما قلت — أن يموت ..

— ولكن كيف يمنع نفسه من المرض ؟

انهم يفهمون المرض على انه نوع من الضعف .. والمملك
لا بد أن يكون قويا .. ولذلك فعندما يمرض الملك فان
زوجاته — قبل أن يموت — يدخلن عليه الحجرة فجأة ويقمن
بخنقه حتى يتم اختيار ملك غيره .. ملك قوى .. ملك غير
مريض ..

قلت مندهشا :

— ولكن ماذا ستفعل اذا داهبك المرض ؟

ورد على الفور :

— سأهرب الى آخر الديار ..

قلت :

— أين ؟

قال :

— الى الخرطوم طبعاً ..

و .. انتهى لقائى مع أغرب ملك فى الدنيا ..

وجاءت مفاجأة هذا اللقاء المثير .. فى آخر اللقاء .. عندما
صحبنى « الملك » بنفسه الى المركب .. وقال لى مقدما احدى
بناته :

ان ابنتى ستصحبك على نفس المركب الى « مالاكال »
ومنها الى الخرطوم .. فاذا أردت أن تتزوجها فاصحبها معك
الى مصر ..

وقلت له مجابلاً .. ان هذا شرف لى ..

و ...

حاولت ألا ألتقى بها طوال رحلتى على المركب وعندما
التقيت بها فى الطائرة العائدة بى الى الخرطوم .. قالت لى بعد
حوار قصير ..

أن والدى كان جادا فى كلامه .. ولكننى الآن أواصل
تعليمى الجامعى فى الخرطوم .. وأعرف أن تقاليدكم تختلف ..
و .. افترقنا فى مطار الخرطوم ..

وهكذا انتهت رحلتى الى ملك الشلوك على وعد
بلقاء — لم يتم — فى القاهرة ..

المشهد رقم (٢)

السحر الأسود

في نهاية حفل صاحب ومربع .. في لاجوس عاصمة
نيجيريا .. لم أشاهد خلاله سوى وجوم بشعة .. تتوارى
وراء « أقنعة » أكثر بشاعة .. سألت رفيقي النيجيري « ماريام
هودنجا » .. - ولكن لماذا كل هذه السيوف الضخمة -
والتي تشبه سيوف فرسان العصور الوسطى .. ولماذا يتبارزون
بهذا العنف .. ورد على باقتضاب وكأنه يعتذر :

- انها عادات قديمة ..

وقلت :

- ولكن لماذا يلوحون بها في الهواء ؟

فقال :

— لطرد الأرواح الشريرة ..

— وهل يعتقدون بوجود أرواح شريرة ؟

— ان بعض القبائل هنا تؤمن بعبادة أرواح الأسلاف ..
وهم يعتقدون ان هذه الحفلات الصاخبة .. بما تحويها .. من
صخب .. وعنف ورقص .. وطبول تساهم في طرد الأرواح
الشريرة .. حتى تعيش أرواح أسلافهم في سلام ..

✳ وسكت « هودنجا » قليلا ثم استطرد :

— والادهى من ذلك انهم أحيانا يعتقدون أن هذه
الأرواح تسكن أحيانا بعض الأشخاص الذين يعيشون حولهم ..
وهم يسرعون بشتى الطرق للتخلص من هذه الأرواح .. فان
فشلوا .. حاولوا التخلص من الأشخاص أنفسهم !!

وسأله وقد بدأ كلامه يرعبنى :

— كيف ؟

وقال « هودنجا » :

— في الحالة الأولى يستعينون ببعض السحرة العاديين
الذين يقيمون لهم بعض الحفلات الصاخبة .. في محاولة لطرد
هذه الروح الشريرة .. من « المريض » المسكون .. لانه في
نظرهم شخص « ملعون » ..

— وإذا فشلوا ؟

— استعانوا بنوع آخر من السحرة .. يزاولون نوعا (محرما) من السحر يعرف بالسحر الأسود .. وهؤلاء .. يتخلصون من الشخص الذى تسكنه الروح الشريرة .. عن طريق مسح خاص .. لا يعرف أسرارهم سوى هؤلاء السحرة .. الذين توارثوا هذه المهنة اللعينة عن أجدادهم منذ قرون ..

— ولكن لماذا أسموه « السحر الأسود » ؟

— لأنه نشأ فى أحراش افريقيا .. وانطلق من خلال معتقداتها الغارقة فى « البدائية » و « الوحشية » .. والأوروبيون هم الذين أطلقوا كلمة (الأسود) على هذا السحر لانهم يصمون كل ما هو افريقى بالسواد ..

— ولماذا هو محرم الآن ؟

— المحرم ليس السحر نفسه .. ولكن ذلك « المسحوق المرعب » الذى يستخدمونه ..

— لماذا ؟

— لأنه باختصار مصنوع من عصارة مجففة من أمخاخ الأطفال !!

وعند هذا لاحظ « هودنجا » اننى وصلت الى ذروة

الفضول الذى يتفجر بالفزع والغضب معا .. وشعر أن آلافا
من الأسئلة تزدهم فى رهبة وغيظ على طرف لسانى ..

فقال لى .. أنا أعرف ما يدور فى ذهنك من أسئلة .. ولم
يمر صفحى من هنا الا وامطرنى بوابل منها .. ولكن لحسن
حظى - وحظك - أن البوليس قبض اليوم فى ضاحية من
ضواحي لاجوس على « وكر لعين » لاستخلاص هذا المسحوق
المربع .. وأنا - لحسن حظك أيضا - أعرف مكان هذا
الوكر فى الأعراس القريية من لاجوس .. فاذا أردت أن تصحبنى
فستجد الاجابة على كل ما يخطر ببالك الآن ..

وقبل ان أسأله عن الموقع ..

كنت أقفز معه فى أوتوييس انتهى بنا الى آخر حدود
العاصمة .. وبعد ان عبرنا نهرا صغيرا .. كانت قدمانا تدلف
داخل أزقة احدى القرى الافريقية داخل الادغال .. وعندما
خرجنا منها طلب منى أن أسرع الخطى .. قبل أن تغيب
الشمس .. وبعد رحلة شاقة قطعنا فيها ثلاثة كيلو مترات سيرا
على الأقدام .. طاب منى « هودنجا » أن أتوقف وأشار الى
بضع بيوت من فروع الشجر مخروطية الشكل محاصرة بأربعة
من رجال البوليس ..

* وقال هودنجا :

لم أكن أتوقع ان المكان محاصر .. وحتى لا تقع في
محذور فسوف أذهب اليهم واستأذن .. وسأصارعهم بانك
صحفي وتريد أن تعرف شيئاً عن هذا النشاط المحرم في
بلادنا .. حتى لا تتعرض لأي متاعب ..

تركني « هودنجا » .. وذهب الى رئيسهم .. ووضعت
يدي على قلبي .. فقد داد الفضول ان يفتت بي .. وصعب
على ان اعود من هذا المشوار المرهق صر اليدين ..

بعد مفاوضات استغرقت عشر دقائق .. وجدت « هودنجا »
يلهث نحوى مسرعا .. ويقول لى لقد وافق « الرئيس »
— يقصد رئيس الشرطة — على أن تجوس خلال هذا الورد ..
بشرط أن تغطي الكاميرا التي تحملها له طوال فترة وجودك ..
لأن الضابط اصدر اليه أوامر بمنع التصوير ..

وسلمت « هودنجا » الكاميرا .. ووافقت دون تردد ..
وبعد توان كنت أقف وسط أبشع وألغن مكان يمكن أن تقع
عليه عينا بشر .. وأخذ هودنجا .. يتكلم في سرعة .. فالوقت
ضيق ورئيس الشرطة يخشى حضور الضابط ..

أشار هودنجا لأحد الأركان المخروطية وقال :

— هنا يجلسون الأطفال .. قبل ذبحهم ..

وهنا يفصلون رؤوسهم عن أجسادهم ..

ثم أشار الى بعض الجبال ..

وهنا يعلقون هذه الرؤوس - بعد فتحها - لتجفيفها ..

وهنا يفصلون الأمخاج المجففة عن الجماجم ..

وهنا يطحنون هذه الأمخاخ .. لاستخلاص (البودرة

القاتلة) لاستخدامها في سحرهم الأسود ..

وهنا (القرن) الذى يحرقون فيه جماجم الأطفال لاختفاء

جريماتهم الشنعاء ..

و هنا طلبت منه أن يتوقف عن الكلام .. فلم يعد
العقل بقادر على الاستيعاب .. ولا القلب بقادر على الاحتمال ..
أحسست أن مشاعرى كلها تختنق وراء غمامة كثيفة من الأحزان
التي تنوء بها الجبال (.. طغى على صدرى مشاعر كثيفة من
الحزن والغضب ولحت الشمس وكأنها تودع معى يوما ثقيلا
محموما ..)

لا أدرى متى انتهى مكوثى .. فى هذا الوكر الأسود ..

ولم أشعر بنفسى .. حتى و « هودنجا » يقطع بى طريق
العودة فى الغابة .. ولم أتذكر كيف نقلنى القارب مرة أخرى
عبر النهر الى ضاحية لاجوس .. ولم تستطع أضواء العاصمة
التي تابعت من خلال نافذ الأوتوبس أن تنتزع كيانى ومشاعرى
.. من تلك البقعة الكثيبة التي رحلت عنها منذ ساعات ..

جميعا - اشباح ملعونة .. هبطت من غوكب شرير والا فكيف
كنت أدى وجوه الافريقيين السوداء من خلال النافذة .. وكأنها
سمحوا فى الماضى بهذه الجريمة البشعة ..

حتى كلمات « هودنجا » بدت لى وكأنها همهمات غير
مفهومة .. ولكننى سمعته يقول :

— ان نفخة واحدة من هذا المسحوق الرهيب كاف لقتل
انسان فى ثوان .. وهكذا يستخدم السحرة هذا المسحوق ..
فى قتل أعداء زبائنهم .. فى صمت .. ودون أى اثبات ..
ولذلك حرمت الحكومة هذا النوع من السحر ولا يمضى
أسبوع دون أن تصدر وكرا من أوكارهم ..

و ...

شعر « هودنجا » .. أنه لم يعد لى أى رغبة فى سماع
المزيد .. وحاول أن يخفف من ثقل مشاعرى .. فقال :

— ولكن مرة واحدة .. استخدم الافريقيون هذا
المسحوق .. فى كينيا فى حربهم ضد الانجليز ..

واستطرد دون أن أعلق ..

— هل سمعت عن حركة « ماو ماو » ؟

ولم أرد ..

فواصل كلامه قائلا :

لقد كانوا يضعون هذا المسحوق في فوهة سهامهم ..
وكانت كافية لقتل جنود الأعداء لحظة وصولها لأجسامهم ..
في هدوء .. ودون أن يسمع أحد في المعسكرات المجاورة ..
فيفزع للنجدة ..

واستمر صمتي .. فقد كرهت أن أسمع شيئا عن هذا
المسحوق حتى ولو كان يستخدم ضد الأعداء ..

وتذكرت عشرات الأطفال .. الذين راحت جماجمهم ضحية
هذا الجنون والجنوح البشري البائس ..

واتتهى مشوارى الى فندق « الامباسادور » بالعاصمة ..

وعندما استلقيت على السرير .. سألتني زميلي المصور

محمد سعيد :

— أين كنت ؟

ووجدت نفسى اهمهم ..

كنت في مكان سأندم على رؤيته طوال حياتى .. وحاول
أن يعرف المزيد .. ولكننى ذهبت في غفوة عميقة .. ظللت
بعدها .. أقاوم أبشع « كوابيس » رأيتها في أحلامي .. خلال
ليلة لا تنسى .. أعقبت نهارا لا تغيب شمسهُ عن ذاكرتى ..

المشهد رقم (٤)

أنا أفريقية .. اذن أنا حرة

الحقيقة التى تقول ان بنات السويد والنرويج أكثر بنات
العالم حرية .. خرافة يجب أن يعاد النظر فيها .. فالفتاة
الأفريقية تتمتع بمجموعة من الحريات تثير حسد أية فتاة فى
العالم كله ..

فى الطائرة التى حملتنى من لاجوس الى القاهرة .. كان
يجلس على المقعد المجاور لى أحد الصحفيين الهنود .. وكان
هذا الصحفي قد أمضى أكثر من خمس سنوات مراسلا
متجولا لصحيفته فى أوروبا .. وكان عائدا الى بلاده بعد زيارة
خاطفة لنيجيريا ..

ولما كانت الطائرة ستمضى بنا فى الجو أكثر من خمس

ساعات فقد دار بيننا حديث طويل ، كان معظمه حول الفرق الهائل بين الحياة في أوروبا وفي افريقيا ..

و كالمعادة ..

بدأ الحديث في السياسة .. وانتهى الى المرأة ..

ولم يستغرق حديث السياسة سوى ساعتين .. كان الكلام خلالهما هادئا لا يحمل أى خلاف .. فكلانا من بلد صديق .. وكان هناك شبه اتفاق في معظم وجهات النظر ..

وعندما جاء حديث المرأة .. والحرية المتاحة لها في بلاد الدنيا .. بدأ الخلاف .. وارتفعت حرارة الحوار حتي كادت تطغى على أزيز الطائرة .. فقد كان صاحبي يعتقد - وهو القادم من أعظم القارات تقدما - انه سيسمعني كلاما مشيرا ..

وكان ملخص ما قاله لى عن بنات أوروبا الآن لا يخرج عما يعرفه كل انسان .. ولا يخرج عما تناواته أفلام السينما من ان الفتاة الأوروبية - خاصة في الشمال - تمارس حريتها « الجنسية » منذ سن الثالثة عشرة .. وتنفصل تماما عن والديها .. وتصبح حرة في أن تختار من تريد وترفض من تشاء و .. و .. الى آخر هذا الكلام الذى سمعنا وشاهدنا « شرحه » في أكثر من رواية .. وفيلم ..

وعندما انتهى صاحبي من حكاياته « الكثيرة » أثاره عدم
اكتراثي في الوقت الذي بدأ ينظر لي في دهشة وأنا أقول :

« أن المرأة الافريقية تتمتع بمجموعة من الحريات
تحسدها عليها أية فتاة أوربية .. »

وأيقظ الكلام فضول أختينا الضحكي ..

و .. بدأ يستمع في شغف شديد ..

قلت له : باختصار شديد .. يجب أن تعرف أن المرأة في
افريقيا تسيطر تماما على الحياة العامة .. والأسرة ..
والمجتمع كله ..

وتلعب المرأة الافريقية دورا رئيسيا في الحياة السياسية ..
وفي معظم البلاد التي زرتها يوجد تنظيم نسائي « سياسي »
غاية في القوة الحيوية .. فلم أر مظاهرة واحدة خالية من عنصر
النساء ولا يعقد مؤتمر واحد الا بحضور النساء .. ولا ينتهي
الا بمناقشات وصرخات « الزعيمات » اللاتي يفرضن دائما
وجهة نظرهن على حضرات الرجال الآخرين الحاضرين الذين
لا يملكون أمام سيطرتهم حولا ولا قوة ..

وقد يبدو هذا الكلام « غريبا » أو « خياليا » ولكن اذا
علمت مثلا أن حزب الرئيس الراحل سيكتوري في غينيا كوتة
امرأة ، وأن هذه المرأة كانت أول وزيرة عمل في قارة

افريقيا - وكان لها سيطرة هائلة على الشعب والحكومة في
غينيا لزال تماما هذا العجب ..

✽ وسألني الصحفي الهندي في شيء من الدهشة :

- وكيف حدث هذا ؟

- المسألة في غاية البساطة ..

ففي عهد الاستعمار الفرنسي .. كانت هذه المرأة - وتدعى
مدام دي فوبو - على شيء من العلم والثقافة .. فقامت
بتكوين تنظيم نسائي بعد أن أحست - قبل الرجال - بخطر
الاستعمار الفرنسي وبضرورة زواله .. واستطاعت أن تقنع
الكثيرات من السيدات والفتيات بالانضمام الى التنظيم ..

وكما يحدث هنا - في مصر - عندما « يجر » الرجل
زوجته وبناته الى اهتماماته السياسية والاجتماعية فقد استطاعت
سيدات وفتيات الحزب أن يعرّين أزواجهن وأولادهن وأبنائهن
الى حظيرة الحزب النسائي ..

وكان أحد الذين انضموا الى هذا الحزب الشاب المثقف
أحمد تورى .. أو سيكتورى ..

ونظرا لما كان يتمتع به هذا الشاب من قوام قارع ..
وثقافة واسعة .. وقدرة هائلة على التأثير في الجماهير .. فقد
استحوذ على اعجاب القوة المسيطرة في الحزب .. وتم انتخابه

رئيسا لهم .. وظللن وراءه يساندنه فى اخلاص حتى استطاع
بعد سنوات أن يحصل على الاستقلال .. ويكون أول رئيس
لجمهورية غينيا المستقلة !!

وكان من الطبيعى أن تشترك المرأة فى أول وزارة مستقلة ..
فاختار سيكتورى مدام « دى فوبو » وزيرة للعمل فى وزارته ..
والذين يعرفون تاريخ غينيا .. يعلمون مدى السيطرة الحكومية
والشعبية التى حظيت بها هذه المرأة هناك ، فورها كان يقف
كل نساء غينيا وقتياتها .. ومن وراءهن يقف جميع الرجال ..
أزواجا وأشقاء وأبناء .. ويعنى هذا ان غينيا كانت تقف
وراءها .. ولما كانت « هى » تقف وراء سيكتورى فان غينيا
كلها - أيضا - تقف ووقفت وراء سيكتورى ..

وقد نعتقد نحن - بعقليتنا الشرقية - ان هذه الحقائق
تضايق الرجل الافريقى هناك أو كانت تضايق سيكتورى مثلا ..
وهذا غير صحيح ..

فكما تعود العقل الجماعى الشرقى « هنا » على سيطرة
الرجل على الحياة العامة .. فان « العقل الجماعى الافريقى »
متعود تماما على سيطرة المرأة .. بل انه يبدو فى كثير من
الأحيان انه راض تماما عن هذا .. بل أن الرجل الافريقى
كثيرا ما يدافع عن هذه الحقيقة قائلا :

— ان المرأة أكثر حرصا على الحياة والأسرة أكثر من الرجل ..

وهو لهذا يخضع لقراراتها التي تتخالف وجهة نظره دون أى احساس بالخجل .. وبغير أدنى شعور بأن كرامته « كرجل » تعرضت لأى « خدش »

حكم النساء

وأكبر دليل على ذلك هذه القصة .. وهى أيضا من غينيا وحدهت أيام سيكتورى .. فقد لاحظ في بداية عهده بالرياسة أن معظم خريجي الجامعة من الشبان يحرصون على العمل في العاصمة ويهربون من العمل في الريف أو القرى النائية ..

ولما كانت خطته تعمل على شد القرية الى نفس المستوى الحضارى الذى تنعم به المدينة .. فقد أصدر قرارا يترتب عليه نقل معظم « شبان » العاصمة والمدن الى القرى ..

ولم يعجب هذا القرار « فتيات كوناكرى » .. فهناك أكثر من ارتباط عاطفى وعائلى بهؤلاء الشبان .. وبكل بساطة ذهبن الى مدام « دى فوبو » .. وجلسن معها ساعات طويلة

يشرحن لها وجهة نظرهن في صراحة .. ويبدو أن « الزعيمة » -
بحاستها - كامرأة - و « اثنى » قد اقتنعت بآرائهن ..

ففى اليوم التالى .. قادت مظاهرة نسائية الى منزل
سيكتورى ودخلت ضمن وفد منهن الى مكتبه .. وحاول الرئيس
اقناعهن بضرورة تنفيذ هذا القرار .. ولكن يبدو انهن أصررن
على ضرورة بقاء الشبان فى العاصمة ..

وفى اليوم الثالث تم الغاء هذا القرار .. وبقي الشبان فى
العاصمة ..

وقد يكون هذا خطأ .. ولكن الذى أود أن أوضحه
انه خطأ ناتج عن عدم تعليم المرأة هناك .. تماماً كما حدث
فى بعض البلاد الأخرى أخطاء ناتجة عن انتشار « الأمية » بين
الرجال ..

خطأ ناتج عن التخلف العام .. الذى تسبب عنه الاستعمار
الطويل وعدم اتساع المدارك والوعى ..

أما ان هذا الخطأ ناتج عن « سيطرة المرأة وحكم
النساء » فهذا ما لم يخطر على بال الرجل الغنى أو الافريقى
بوجه عام .. فهذه مسألة لا يشعر بها .. ولا يتضايق منها ..
بل يتقبلها بروح ودية .. وباقتناع تام .. اقتناع له جذور
طويلة فى تاريخ الرجل الافريقى .. الذى يضع للمرأة مكانة
خاصة فى قلبه وفى مجتمعه ..

الأم هي سيدة البيت

نقبل عصر الاستعمار بقرون عديدة ..

وعندما كانت حياة الغابة تسيطر على الانسان بكل ما يعترضها من قلق وخوف .. واضطراب .. كان الرجل يلتقى - صدفة - بالمرأة .. يلتقى بها في صورة حيوانية .. لا تختلف كثيرا عن صور تلك اللقاءات « الودية » العاجلة التي تحدث بين الحيوانات الأخرى ..

ولما كان الانسان هو الحيوان الوحيد - في الغابة - الذى لم تحدد له الطبيعة موعدا معيناً في التناسل .. ولما كان الرجل .. لم يكن قد عرف بعد حياة المنزل .. ولا يبقى مع المرأة سوى ساعات قليلة ..

فغالبا ما كان ينتج عن هذا اللقاء ثمرة جديدة .. أو انسان جديد .. وهكذا كان الرجل « يفعلها » ثم يمضى الى حال سبيله في الغابة دون شعور بأى مسئولية .. وكان ولده الصغير يخرج وحيدا الى هذا العالم الرهيب الموحش فلا يجد أمانه سوى حضن أمه ترعاه وتحميه وتعلمه وتوجهه ولا تسمح له بالانطلاق الى قلب الغابة الا اذا تخطى مرحلة الطفولة .. وحتى هذه المرحلة لم تكن هناك أسرة على الإطلاق ..

فقط الأم تربي أطفالها .. فاذا ما كبروا تركتهم كما تفعل
حيوانات الغابة يواجهون مصيرهم داخل أحراشها ..
وعندما تقدمت حياة الغابة ..

كانت المرأة أسبق من الرجل - الى حياة أكثر تقدما -
فعرفت طريقها الى الاستقرار .. وكانت أول من بنى المنزل ..
وعاشت فيه .. وحتى في هذه المرحلة .. كان الرجال يملكون
عليها .. ويعاشرنها ثم تلدهم الأبطال - من آباء مختلفين -
ثم تنسب أولادها اسماءهم الى اسمها .. لانه ليس هناك
آباء ثابتين ..

ومن هنا تكونت الأسرية « الأموية » أسرة تنظمها الأم
وتحكمها المرأة لأن الرجل مازال هاربا .. تأثرا .. خائفا في
أحشاء الأعراس .. وحيواناتها الضارية ..

وفي مرحلة أكثر تقدما .. استطاعت المرأة أن « تجذب »
الرجل الى الاستقرار معها .. ولم تستطع أن تقنعه تمام بان
يصبح زوجا دائما .. وأبا لأولاده الا بعد آلاف السنين ..
من هنا ..

يمكننا أن نصل الى الجذور الحقيقية التي تستمد منها
المرأة الافريقية مكائنها الآن في قلب الرجل .. في قلب الابن ..
في قلب الأخ و .. في قلب الزوج ..

ومن هنا ..

يمكننا أن نصل الى النبع الحقيقي الذى دفع الرجل
الافريقى الى احترامها .. وتقبل سيطرتها .. وتقديس قراراتها
خاصة مايتعلق منها بالأسرة والعاطفة والجنس ..

فإن له معها تاريخا طويلا من الحب العميق .. من الشعور
بالامتنان والحماية والأمان .. انه لا ينسى أبدا فى أعماق
« وجدانه » السحيق أنه كان مجرد حيوان تائه لا يشعر بأى
مسئولية ، وكانت (هى) تجلس وحدها فى عش موحش ..
وفى بطنها نقطة منه تحنو عليها .. وتسهر على رعايته حتى يصبح
جنينا .. ثم مولودا .. قطفلا .. فانسانا جديدا ينهل الغابة
صراخا وحركة وعويلا ..

فاذا أضفنا لهذا ذلك الأثر الذى تركه الرجل الأبيض -
خلال سنوات الاستعمار - من طريقة معاملته للمرأة .. واحترامه
لها .. لاستطعنا أن نكون أكثر فهما للمرأة الافريقية ..
ولتصرفاتها التى قد تبدو غريبة لنا ..

وقد ذكر أحد الأوربيين أن هذا الأثر لا يتعدى قطرة فى
بحر كبير .. فبينما رغب الرجل الأوربى فى « منح » الحرية
للرأة .. كانت هذه الحرية جزء لا يتجزأ من حياتها .. من
تاريخها .. من تقاليدها النابعة من حياة الغابة ..

فمثلا المرأة الأوربية تتفخر الآن بأن لها مطلق الحرية في أن تختار زوجها .. ولم تعد تخضع لضغط أهلها كما كان يحدث في الماضي ..

وعندما تستمع المرأة الافريقية لهذا تهز كتفها .. فهي منذ آلاف السنين تختار من تحب من رجال (الغابة) لمعاشرتها حتى دون زواج .. وهي لم تعان يوما واحدا من ضغط أهلها لسبب بسيط جدا .. وهو انه لم يكن لها أهل على الإطلاق .. فهي دائما وحيدة ..

تختار وحدها .. وتعاشر وحدها .. وتلد وحدها .. وقد منحتها تلك الظروف حرية هائلة تجاه الجنس الآخر ما زالت ظلالة باقية حتى الآن .. حتى بعد تكوين المنزل في الغابة .. ثم في القرية .. وحتى بعد انشاء المدن الصغيرة والكبيرة ..

في برازافيل .. يحتفلون (بالبت الحامل)

والذى لا يعرف تاريخ المرأة الافريقية .. وتقاليدها القديمة يكاد لسانه ينقصد من الدهشة وهو يتجول في شوارع المدن الكبيرة مثل « داکار » و « لاجوس » و « برازافيل » .. تكفى ايماءة .. أو ابتسامة بسيطة لأي فتاة ، ويصبح كل شيء بعد ذلك غاية في السهولة ..

والنظرة السطحية لهذه الظاهرة تجعل الزائر « الشرقى »
 ذا التقاليد المحافظة يحكم حكما قاسيا على الفتاة الافريقية
 ولكنه اذا علم أن تصرفها هذا ما هو الا امتداد لحياتها القديمة
 فى الغابة .. الذى يدفعها الى ارضاء كل نزعاتها العاطفية
 والطبيعية .. خاصة ان تقاليدها الأسرية .. وقيمها الوثنية
 لا تقف حائلا أمام هذا التصرف ، بل على العكس قد تشجعه
 وتباركه وتسانده .. فالعريس الافريقى - على سبيل المثال -
 وفى معظم البلاد التى زرتها - لا يهتم اطلاقا « بعذرية » فتاته
 فهو يعتقد أنها قد مارست - بحكم الضرورة - كافة حريتها
 الجنسية مثله منذ أن وصلت الى سن ملائمة ..

وحتى اذا كانت ممارستها هذه قد ترتب عليها أن تحمل
 قبل الزواج فهذا لا يمثل شيئا خطيرا فى نظره .. وقد سمعت
 أن من « تقاليد » بعض الأسر فى الكونغو برازافيل - أن تقيم
 حفلات خاصة للفتيات اللاتى يحملن قبل الزواج فهذا يدل فى
 نظر الأسرة والمجتمع - انها فتاة « ولود » يمكن أن تهب مستقبلا
 للزواج ما يريد من البنين والبنات وهذا الطفل لا يمثل أى مشكلة
 .. ان اسمه ينتسب الى الأم كما كان يحدث فى الماضى .. وقد
 يترك لوالد العروسة عند الزواج .. وقد يقبل الزوج أن يجعله
 معه ومع العروس حسب الاتفاق حسب رغبة الطرفين ..
 وقد دعت لواحدة من هذه الحفلات .. واهتمت أن ارقب

وجه الفتاة الحامل (المحتفى) بها .. لم يكن على وجهها أى أثر للخجل .. على العكس كانت السعادة تملأ وجهها .. والاغرب أن والدها ووالدتها كانا أكثر منها سعادة و .. فخرا .. أذن .. فلا مشاكل فى الجنس .. ولا فى العاطفة .. المهم هو أن الطبيعة تأخذ مجراها .. لا يعترض اندفاعها شئ من تعاليم الدين أو العرف .. أو التقاليد .. رغم أن معظمهم قد اعتنق المسيحية عن طريق التبشير ، فقد حرص الرجل الأبيض أن يحجب من تعاليم المسيحية النقية عن الفتاة الافريقية ما قد يعرقل اشباع حاجاته العاطفية والجنسية .. خاصة عندما وجد فى جسدها البرونزى الفارع شيئا جديدا .. أو نزوة جديدة ..

وكانت المرأة الافريقية بفطرتها .. تهب له كل ما يحتاج دون مقابل .. ولكنه استطاع أخيرا أن « يلوث » نظرتها الى الجنس عندما أخذ يترك لها بعد كل مقابلة بعض الفرنكات أو الاسترلينى ..

ومن هنا تحولت لحظات الحب التى كانت تهبها (مجانا) للغرباء .. الى تجارة أخذت تتسع حتى أصبحت لها شوارع كاملة ما زالت باقية فى معظم العواصم الافريقية .. شوارع يعربد بين أحشائها أعنف صور الجنس فى صراحة لم يشهد لها العالم مثيلا ..

— وماذا بعد الزواج ؟

هكذا سأل صاحبي الهندي ..

— انها تخلص زوجها .. ولكن معنى الاخلاص هناك يختلف .. فاخلاص المرأة المتزوجة يتركز في انجاب الأطفال ومساعدة الزوج في عمله .. ولكن « الخيانة » بمعناها الذي نعرفه هنا فلا محل له اطلاقا هناك .. ولا بسبب أى ازعاج بالنسبة للزوج ..

— ولكن ماذا يكون وقع الخبر على الزوج ؟

— تماما .. كما يكون وقع الخبر على الزوجة في مصر أو الهند بعض الغيرة .. شيء من العتاب .. وقد يشحذ هذا همه الزوج في مزيد من الجهد لجذب الزوجة اليه .. لشغلها عن الاغراء الخارجى ..

— لا .. لا .. غير معقول .. الذى تقول ..

هكذا صاح صديقى الهندي ..

— ليس هناك شيء معقول • وغير معقول بالنسبة للمجتمع الانسانى فكل مجتمع له « معقول » خاص به والشيء « غير المعقول » فعلا هو ألا نصدق هذه الحقائق .. ولا نتقبلها لمجرد انها أشياء لا تحدث فى بلادك أو بلادى •

فالفتاة الافريقية لا تمارس هذه الحريات على انها
« اباحية » أو ممنوعات لأن معتقدها الديني •• وتقاليدها ••
ونظرة المجتمع لا تحرم ذلك ومن الخطأ أن نحكم على ممارسات
الشعوب من خلال قيمنا نحن •• وقيم ديننا أو من خلال نظرة
مجتمعنا الى الحرام والحلال •



المشهد رقم (٥)

صفحة من تاريخ مصر .. في أحراش أوغندا

لست أدري لماذا شعرت بسعادة غامضة عندما أصبحت طائرنا فوق أوغندا .. ولم يكن هذا الاحساس نابعا من ذلك الجمال الطبيعي الذى ينبع من جبالها وسفوحها الخضراء .. وانما كانت هناك أكثر من حقيقة تحرك هذا الاحساس ..

اننا نتقرب من قلب القارة الافريقية .. وموقع أوغندا وسط القارة .. ان لم يكن وسط العالم بأسره .. وبعد قليل تهبط بنا الطائرة في مطار عنتيبي .. المدينة الأوغندية الشهيرة التى تقع على خط الاستواء .. وسط الكوكب الأرضى .. حيث تمتد بحيرة فيكتوريا فى مساحة هائلة أمام العاصمة « كامبالا » ..

بعد هبوط الطائرة اتجهت الى العاصمة وأنا أشعر بأكثر
 من مفارقة فرغم أن بحيرة فيكتوريا هى بداية رحلة النيل ..
 فان الناس لا يزرعون منها أراضيهم .. ولكنهم هنا يشربون معنا
 من مياه النيل ويزرعون أراضيهم بمطاره ويستظلون بأشجاره
 ويستوحون من منابعه أساطيرهم وأشعارهم .. ويصيغون من
 كل هذا حضارتهم .. وتاريخهم ولا بد ان بين صفحات هذا
 التاريخ شىء مشترك بيننا ..

وخلال تجوالى فى بعض القرى خارج كمبالا العاصمة ..
 مررت بأخذ الافريقيين يرتدى طربوشا - كالذى كان يرتديه
 المصريون - فى عهد الملك .. ولكن بدون زر وبداء الى الرجل ..
 سعيديا بهذا الطربوش .. وعندما سألتته عن سر هذا الطربوش
 قادني الى قرية ... كل رجالها يرتدون الطرايش .. وخلال لقاء
 طويل مع أكبر شيوخ القرية .. فهمت منه كل شىء .. انهم
 أحفاد كتيبة من المصريين الذين غزوا أوغندا أيام الخديوى
 اسماعيل .. وبدأ الرجل .. يروى لى القصة كما يعرفها :

بدأت السطور الأولى لهذه الصفحة تكتب حروفها عندما
 جهز الخديو اسماعيل باشا حاكم مصر حملته الشهيرة بقيادة
 أمين باشا للتوجه الى منابع النيل وقال له اسماعيل وهو يودعه :
 - سر مع هؤلاء المساكين .. واجعل النيل مرشدك ..

فإذا وصلت الى المنبع لهذا النهر فاجعله تابعا لمصر .. ولا تمضى
خطوة أبعد من ذلك ..

وكان اسماعيل يهدف من ذلك أن يؤمن منابع النيل
بالنسبة لشعب مصر .. وأن يجعل حوض نهر النيل من المنبع
للمصب بلدا واحدا ..

ونجح أمين باشا في التغلب على كل القوى التي هاجمها ..
حتى وصل الى أوغندا القديمة بممالكها العتيدة .. وواجهته
هذه الممالك بعنف ، ولكنه استطاع أن يستمر حتى وصل الى
تل « روباجيا » المقام عليه كنيسة روباجيا في كمبالا عاصمة
أوغندا الحالية .

وفتحت هذه الحملة عيون انجلترا في ذلك الوقت على
ما يجرى وسط القارة الافريقية ، وكانت قد بدأت التهام
أجزاءها الواحدة بعد الأخرى وكان يمثل انجلترا بأوغندا في ذلك
الوقت كابتن « ليوجارد » رئيس ادارة شركة أمبريال بشرق
افريقيا في ذلك الوقت ..

ومما أثار « ليوجارد » في هذه الحملة ان قائدها - وان
كان اسمه أمين باشا ومسلم - الا انه ليس سوى رجل ألماني
وعسكري يعمل لدى الخديوى اسماعيل الذى كان لا يثق
سوى في الأجانب .. وكانت مخابرات انجلترا في ذلك
الوقت على علم تام بالاطماع الألمانية في شرق افريقيا ..

وفي هذه الفترة كان اسماعيل مدينا بالكثير لصندوق الدين .. وكانت حالة مصر لا تسمح بمثل هذه المشاكل ولا التوسعات .. وذهب ليوجارد لأمين باشا .. ونصحه بالعودة وعدم اثاره القلاقل .. وأطلعه على أسرار الحالة السيئة التي تمر بها ميزانية مصر .. ولم يزد هذا الكلام أمين باشا سوى اصراره على الاستمرار وقال للشعب الانجليزى ليوجارد :

— لن أعود الا اذا جاء لى كتاب من الخديوى ..

وأسرع ليوجارد ليخبر لندن بذلك وأسرت — بالتالى — لندن بالضغط على الخديوى حتى استصدرت قرارا سريا منه الى أمين باشا بالعودة من أوغندا .. والتخلى عن المناطق التى احتلها ..

وفوجئ أمين باشا بهذا التصرف غير المنتظر وغضب .. ولم يعد الى مصر هذه المرة .. ولكن الى ألمانيا .. لينصح زعماء البلد بضرورة التواجد فى شرق افريقيا نظرا لضخامة ثرواتها وجمال مناخها ..

وكان هذا الحادث الذى بدأ بحملة مصر لتأمين منابع نهرها الخالد .. هو بداية للوجود الألمانى فى تنزانيا ، والوجود الانجليزى فى كينيا وأوغندا .. والطريف ان أمين باشا عندما أمر عساكره بالعودة الى مصر .. رفض بعض الجنود المصريين العودة .. وهربوا فى أحراش أوغندا وتزوجوا من بنات قبائلها

وما زال أحفادهم هناك .. يعيشون حتى هذه اللحظة ..
وهؤلاء هم الذين تعرفت عليهم صدفة عندما لاحظت أن بعض
الأوغنديين في شمال أوغندا يرتدى الطرايش المصرية ويعلق على
ذراعه شرائط الشاويشية التي تشير الى انتماءاتهم القديمة الى
حملة الخديوى اسماعيل .. تلك الحملة العظيمة التي لم يبق منها
سوى مجرد ذكريات في احدى قرى أوغندا النائية ..

أغرب حكاية الاستقلال

وفي أوغندا أيضا .. استمعت لتفاصيل أغرب حكاية
استقلال .. فعندما استقلت أوغندا في أكتوبر ١٩٦٢ واجهت
أغرب مشكلة يمكن أن تواجه زعيما وطنيا .. والزعيم هنا هو
« ميلتون أوبوتى » محرر أوغندا وأول رئيس لجمهوريتها ..

فقد كانت أوغندا تحوى أربع ممالك محلية ، يحكم كل
منها ملك ، وكان رئيس الدولة بريطانيا وهو « سيرادوار موتيسا »
وكان أوبوتى رئيسا للوزراء بحكم الأغلبية التي حصل عليها
حزبه في الجمعية الوطنية .. وهو حزب « مؤتمر الشعب
الأوغندى » ..

وعندما انتهت مدة رئاسة « موتيسا » أصبح « الكاباكا » ملك بوغندا رئيسا للدولة .. وأوبوتى رئيسا للوزراء .. وهذه الممالك كانت عند بداية الاستقلال ..

✽ بوغندا : ٢ مليون نسمة

✽ بورفيورو : مليون نسمة

✽ انكولو : مليون نسمة

✽ تورو : مليون نسمة

✽ وباقي أوغندا كلها : ٢ مليون نسمة

وقد أصبح الكاباكا ملك بوغندا الرئيس الأعلى للدولة بسبب أن مملكته تحوى العدد الأكبر من سكان أوغندا ، وكذلك العدد الأكبر من مدارسها وجامعاتها .. عاصمة البلاد كمبالا .. ولم يكن هذا الموضوع يرضى أوبوتى .. زعيم الأغلبية ورئيس أقوى أحزابها .. لقد كانت آماله تحوم حول تحقيق الوحدة الوطنية لينطلق ببلده الصغير الذى لا تتجاوز مساحته ٩٤ ألف ميل مربع .. فكيف يمكن لبلد هذه مساحته أن ينطلق وهو أسير نظام متخلف تمزقه خلافات أربع ممالك لكل منها تقاليدها القديمة الخاصة ..

✽ ما الحل ؟

و .. الكاباكا سعيد جدا برياسته للدولة الجديدة .. وهو

ينظر اليها كملكمة خاصة .. ويمضى فى شوارع العاصمة
كالامبراطور يركع له الشعب فى مواكبه ولا يستطيع أحد أن
يرفع عينيه حتى لتحيته .. وأوبوتى بطبيعته رجل هادئ وصبور
ولكنه - أيضا - عنيد ومؤمن بشعبه ووطنه ..

وانتظر قليلا .. حتى طلب الكاباكا ذات يوم أن يقوم هو
بصفته رئيسا للدولة بتمثيل أوغندا فى الخارج ..

ويهدوء احتكم أوبوتى للدستور .. وكانت النتيجة فى
صالحه .. وكان الدستور يقول أن رئيس الوزراء بصفته ممثلا
لأغلبية برلمانية هو الذى يمثل الدولة فى الخارج ..

✽ ثم ثار الخلاف الثانى ..

كانت هناك بعض المقاطعات المختلف عليها ، وقد اقتطع
الانجليز أراضي هذه المقاطعات من مملكة بورنيورو وأعطوها
هدية للملك بوغندا نظرا لانه كان شديد التعاون معهم ..

وحدث خلاف بين الكاباكا وأهالى هذه المقاطعات ..

ومرة أخرى تدخل أوبوتى وقال :

- نحتكم للدستور ..

والدستور يختم فى هذه الحالة اجراء استفتاء أهالى
البلاد .. وأجرى الاستفتاء .. وكانت النتيجة عودة هذه
المقاطعات لبورنيورو واقتطاعها من بوغندا .. من الكاباكا ..

واعتبر الكاباكا هذه النتيجة ضربة موجة له شخصيا ..
ومنذ تلك اللحظة تأزمت العلاقات بين الطرفين .. وبدأ الكاباكا
يتحرك في الظلام ويقوم باتصالات في الداخل وفي الخارج ..
وفي عام ١٩٦٦ وصل الأزمة لقمتهما عندما وصلت أخبار
«الأوبوتى» بأن الكاباكا يتآمر للقضاء عليه عن طريق استخدام
قوات بريطانية ..

و .. كذلك عندما طلب الكاباكا من أوبوتى إخلاء
العاصمة (كامبالا) لا لشيء إلا أن هذه العاصمة تقع في دائرة
مملكته بوغندا !!

وهنا كان صبر أوبوتى قد نفذ تماما ..
فقام على الفور بعزل الكاباكا واستولى على كل سلطاته
وأعلن نفسه رئيسا للدولة ..

أما الكاباكا فقد هرب من الباب الخلفى لقصره
الاسطورى .. ومشى أكثر من شهر ونصف شهر على قدميه
في الأدغال حتى وصل الى بوروندى .. ومن هناك استقل
طائرة خاصة الى بريطانيا ..

وفي عام ١٩٦٧ أعلن أوبوتى دستوره الجديد الذى
أصبحت بمقتضاه أوغندا جمهورية بلا ممالك .. بلا نظم قديمة ..
وأصبح أوبوتى أول رئيس لجمهورية أوغندا الجديدة ..

والواقع ان المسألة لم تتم هكذا بالبساطة التي تبدو من خلال هذا السرد السريع .. فان القضاء على ممالك عريقة ذات تقاليد موغلة في القدم وذات مقدسات ومعتقدات خاصة ليس بالشئ السهل .. ولكن وطنية أوبوتى واقتناعه التام بمصلحة أوغندا جعلته يضرب هذه الضربة التقديمية البارة ليختصر سنين طويلة على أوغندا وكان يمكن أن تضيع من عمرها وسط دهاليز مظلمة من التخلف والتطاحن وسط خلافات لا مبرر لها بين أفراد بلد واحد .. بحكم أربع ملوك .. ورئيس وزراء !!



المشهد رقم (٦)

اعنف رقصة في الدنيا

هذه أعظم رقصة في العالم .. اسمها الطم طم .. يرقصونها في أدغال افريقيا .. انها مزيج من الزار المصرى والروك أندروال الأمريكى والسامبا والتشاتشاتشا ..

كان آخر قرار أصدرته حكومة السنغال أثناء زيارتنا لها (هو) تحريم رقصة الطمطم في موسم حصاد الفول السودانى .. والسبب هو الاقبال الجنونى للشعب السنغالى على هذه الرقصة .. أما لماذا كان التحريم في موسم الحصاد بالذات .. فذلك يرجع الى سبب اقتصادى بحت ..

فالمحصول الرئيسى السنغال هو الفول السودانى .. ولما كانت هذه الرقصة بالذات - الطمطم - منتشرة

انتشارا منقطع النظير في ريف السنغال ومدنها .. فقد اضطرت
الحكومة لاصدار هذا الأمر الغريب ..

وعندما يسمع السنغاليون طبول (الطمطم) .. فان شيطانا
غريبا يسيطر على أرواحهم .. وتفقد عقولهم القدرة على التفكير
في أى شىء آخر .. وتفقد أجسادهم القدرة على الثبات ..
وتتحرك (لا اراديا) مع ايقاعات الطبول ..

فاذا دقت هذه الطبول في قرية .. خلت بيوتها من النساء
والفتيات والأطفال والشيوخ .. وتصبح بعد ساعة واحدة ..
مجرد أكواخ مهجورة موحشة ..



في أحد الأيام كنا نسير في أحد شوارع الحي الوطنى
بالعاصمة داكار .. ولاحظنا انه خال تماما من الناس .. ومن
الحركة العادية التى تضح بها كل مدينة وفي نهاية الشارع فهمنا
كل شىء .. كانت هناك حفلة طمطم كبيرة ..

زوجة أحد الوزراء

وفي يوم آخر .. كنت اتجول في ميدان الاستقلال أكبر
ميادين المدينة .. وفوجئت بمشهد غريب .. كانت هناك

أحدى حلقات رقصة الطمطم وبجانب الحلقة شاهدت سيارة فاخرة تقترب وعندما اشتدت قرعات الطبول .. رأيت باب السيارة يفتح .. وتنزل منها سيدة سنغالية حسناء .. وتقف أمام السيارة وترقص فى نشوة وعنف .. وظلت هكذا تتلوى وترقص فى حركات هستيرية بين تصفيق وصيحات المرافقين فى المييدان .. وعندما سكنت الطبول ركبت سيارتها وأمرت سائقها بالأسراع وعندما اختفت سيارتها .. سألت :

— من هذه السيدة ؟

وكانت دهشتى بالغة عندما قالوا لى فى بساطة شديدة :
— انها زوجة أحد الوزراء ..

أعنف رقصة فى العالم

ورقصة الطمطم تعتبر — حسب كلام خبراء الرقص الذين التفتت بهم فى السنغال من الفرنسيين — أعنف الرقصات العالمية .. وهى مزيج غريب من الزار المصرى على الروك أند رول الأمريكى كما تحمل لمحات واضحة من السمبا والرومبا والتشاتشا والتويست .. وقد حضرت — أيام العيد الكبير —

واحدة من حلقات رقصة الطمطم في (كولاك) إحدى قرى
البنغال الشهيرة ..

وتعتمد الرقصة من الناحية الموسيقية .. على ضربات
الطبول العنيفة جدا .. وتبدأ حفلة الطمطم بحلقة كبيرة من
الشبان والفتيات لا تقل عن ٢٠٠ شخص ..

يقف وسطها فرقة موسيقية تتكون كلها من قارعى الطبول
الذين لا يزيد عددهم على عشرة ..

ويبدأ هؤلاء - ولدة ساعة كاملة - يقرعون بأيديهم
وبعضيان صغيرة - مثل عصا المسخراتى - قرعات تحمل
(وقعا واحدا) ..

(طم طم .. طم طم) ..

وعلى هذه القرعات الرتيبة .. تجتمع الناس من كل
اتجاه .. وتفرغ القرى المجاورة كل ما في أحشائها من أطفال
وفتيات وشبان وشيوخ ..

وبعد ساعة من الطبل العنيف المستمر .. يبدأ الرقص ..
والرقص فردى ..

في بعض الأحيان تتوسط الحلقة فتاة .. وفي البعض الآخر
يتوسطها أحد الشبان ..

ولكن رقصة الاثنين تختلف تماما ..

الشباب تتطاير يداه وقدماه في السماء وكأنه يحاول أن يطير .. وفي بعض الأحيان يبدو وكأنه يقاوم شيطانا لا نراه ..

أما الفتاة .. فان ملامح رقصاتها وان تشابهت الى حد ما في حركات قدميها مع الشباب فان حركات صدرها ووسطها توحى بإشارات جنسية واضحة .. وعندما تصل هذه الحركات الى أقصاها يتصايح الجميع صيحات هستيرية مجنونة .. ويطلبون المزيد ..

وتعنى كلمة المزيد هنا شيئا واحدا ..

وهو ان تزداد الفتاة كرمًا في رفع ملابسها والكشف أكثر عن ساقها ..

وفي هذه الحالة لا بد أن تخضع الفتاة .. لأنها كلما استطاعت أن تحوز اعجاب عدد كبير منهم .. حصلت على قدر أكبر من النقود .. وهى تحصل عليها في صورة (نقوط) كما يحدث في بعض أفراحنا ..

وعندما يزداد هوس إحدى الفتيات .. فان بعض صويجاتها يقتربن منها ساعة الرقص .. ويجلسن تحت ساقها .. حتى اذا فقدت وعيها ورفعت ملابسها الى الحد غير اللائق .. صفقن بعنف لينبهن الفتاة الى ان المسألة قد زادت عن حدها ..

وكلما صفقت صويجاتها ، ارتفعت صيحات الجماهير

المجنونة تطلب المزيد من الفتاة والفتاة ضعيفة أمام اغراء
الجماهير ..

و .. تظل عمليات الاغراء المتبادلة حتى منتصف الليل ..
في أعنف رقصة شاهدتها في افريقيا بل أعنف رقصة في
العالم كله ..

والآن .. هل عرفت لماذا قررت حكومة السنغال تحريم
هذه الرقصة خاصة في موسم الحصاد .. ؟ اذا لم تكن قد
فهمت بعد فحاول أن تقرأ الموضوع من آخره ..



المشهد رقم (٧)

مجتمع « الاكان » فى اشانتى

نموذج للفكر القبلى الافريقى

الطريق الى فهم أى دولة افريقية لا يمكن أن يكون من خلال أحزابها .. ومؤسساتها السياسية والاجتماعية ذلك لأن فكر أى دولة فى القارة يحوى فى قاعه رواسب هائلة من فكرها القبلى القديم .. ولا يستطيع أى باحث أن يدعى فهم افريقيا بمجرد دراسته لنظمها الحديثة .. فلا بد أن تمتد هذه الدراسة أيضا الى فكر افريقيا القديم وأقصد به الفكر القبلى الذى ولد بين الأحرار .. فما زال هذا الفكر يصب بغزارة ويؤثر بوضوح فى تيار الفكر الافريقى المعاصر ..

وسنحاول في هذا الفصل أن تقدم نموذجاً واحداً لهذا الفكر والنموذج من غانا .. وليس معنى ذلك ان هذا النموذج يعبر عن كل ما تحويه النماذج التقليدية في افريقيا من قيم فلسفية آلهته .. وقواه الخفية ..

ولكننى أقدمه كمثال لهذا الفكر القديم الذى يقبع وراء « الديكتاتور السياسى » الحديث الذى يخذلك فى البداية من خلال المباني الشاهقة والشوارع النظيفة التى تركها الاستعمار ..

وسنحاول من خلال هذا النموذج دراسة « مجتمع الاكان » الذى يمثل ثلثى سكان غانا .. ويقيم معظمهم فى منطقة « الاشاتى » و « اكسيم » وغرب اكرا .. وهى المنطقة التى وقعت فيها حوادث الكرة عندما ذهب فريق الكرة المصرى ليلعب فريق كوتوكو فى خماسى (بمنطقة قبائل الاشاتى) ..

ومجتمع الاكان - كأى مجتمع افريقى قديم - له فلسفته الخاصة فى تفسير الكون والحياة والموت .. ونظراته الخاصة الى الانسان والمجتمع ونظراته المحددة فى الحكم والقضاء .. والنظم العسكرية والأدب ..

دور الأرواح

✽ فلسفته في الكون :

والرجل الاكائي لا يهتم كثيرا بالعالم « الظاهري »
المباي الذي يخططه فالعالم بالنسبة له شيء « غيبي » ..
وتنشق في نظره كل أمور الطب والسياسة والاخلاق من
خلال تعليمات هذا العالم الخفي أو بمعنى أدق من تعليمات
الهة .. وقواه الخفية ..

ورغم هذه النظرة الغيبية للعالم فان العقل الاكائي
— يرفض — في بعض الأحيان حل المشاكل حلا غيبيا .. فلقد كان
للاكائي مشاريع في الحديد والصلب وقد عرفوا طريقهم الى صنع
الأسلحة في أفران الحديد .. كما ان قنهم في صياغة الذهب
والمجوهرات آثار اعجاب السياح الأجانب ، كما أن وسائلهم
العلاجية عن طريق الأعشاب وصلت الى درجة عالية من الكفاءة
ولذلك فقد ظل هذا الطراز من العلاج — حتى الآن — منتشرًا
بين عدد كبير من السكان ..

وتحتل الروح في عالم « الاكان » منزلة هائلة .. فبدولتهم
عبارة عن عالم غريب يسكنه الناس والأرواح والالهة ولهذا

فقد كانت القرابة الروحية تحتل المكانة الأولى في أواصر
القربى بين الناس ..

وهم يرون - مثلا - أن الاحياء في حقيقتهم أرواح حتى
وان كانت مغطاه من الخارج بلحم وعظام وكل انسان في نظرهم
روح أرسلت لهذا العالم لاداء رسالة محددة ولعل هذا يلقي
بعض التفسير على محاولاتهم الغريبة - في ذبح بعض الطيور
والقاء بعض الترانيم قبل بداية مباريات الكرة .. فكل هذه
التصرفات هى من وحي معتقداتهم الروحية ولهذا فقد كان لاعب
الكرة الخطيب بذكائه وإيمانه الفطرى يرهبهم جدا عندما كان
يقف في « الجون » ويهمس بقراءة الفاتحة .. كانوا يعتقدون -
من وجهة نظرهم - انه يسحر لهم .. حسب ما أملت عليهم
معتقداتهم البدائية ..

✽ نظرتهم الى الانسان والمجتمع :

ومجتمع الاكان مقسم الى عشائر - ورغم أن مبدأ المساواة
موجود - فهي ليست مساواة مطلقة ، فنجد أن هناك -
مثلا - عشيرة واحدة يختار منها كل الحكام .. وقد أضعف
هذا احتمال الصراع على السلطة .. وحافظ في الوقت نفسه
على نوع من ديمقراطية القيادة .. حيث أن الوصول للسلطة
يأتى عن طريق الانتخابات .. حتى في قبيلة الحكام .

واقتصاد المجتمع الاكانى مجرد اقتصاد « استهلاكى »
 للحياة اليومية للأفراد .. ولا فائض فيه الا القليل .. فالأرض
 مشاع للجميع .. وهى ملك مشترك للعشيرة .. الكل يعمل
 ولا يحق لأحد التصرف فيها - عدا شيخ العشيرة ..

ولما كانت احتياجات الفرد مرتبطة الى حد كبير مع
 احتياجات عشيرته .. فان « تقرير » العمل المناسب له كان من
 اختصاص هذه العشيرة .. فالفرد لا يفكر اطلاقا فى اختيار
 العمل المناسب له ..

والأم فى مجتمع الاكان هى المسئولة عن الالتزامات
 الاقتصادية لأطفالها .. فالرجل مشغول بالتزامات العشيرة ..
 والأم وحدها مسئولة عن رعاية الطفل .. وهى تتعاون فى تربيته
 مع المسنين من أفراد القبيلة .. وتعتمد على رصيدهم الفكرى
 من الحكم والمأثورات .. وتسمع منها ما يشير الى نوع من
 الذكاء الساخر الذى لا يخلو من بعض القسوة ..

- اذا اقترف الطفل تسع سيئات فان نتائج خمس منها
 ترتد عليه ..

- اذا حاول الطفل التمارض ، وادعى الموت فعليك أن
 تتظاهر بدفنه ..

- لا ينشأ الطفل الناجح على فراش لين من الورق .. وفى
 حكم الاكانين وأمثالهم أمثال أكثر سخرية عن الفقر والغنى منها :

- لا يتناقل الناس — أبدا — أقوال الفقراء المأثورة •
- يفصل في قضية الرجل الفقير في جلسة قصيرة ••
- تختصر دائما « كل » الاثام التي يقتربها رجل غنى ••
- عندما يسكر رجل غنى •• لا يقال عنه سوى انه معكر المزاج ••

✽ نظريتهم في الحكم :

يستمد الملك الاكاني سلطانه كله من الشعب •• ولهذا فكثيرا ما تصدر قرارات الحاكم على نسان الشعب وباسمه •• ولما كان الملك يمثل « الوحدة الروحية » للشعب فقد كان في الامكان خلع الملك على شرط أن تقدم أولا أسباب هذا الخلع •• فالملك الذى يصر على تقديره « الشخصى » للأمور دون الاستماع لآراء مستشاريه أو الذى يظلم أو يرثى أو يستغل تفوذه مع نساء القبيلة يقال عنه — فى لغتهم — انه ملك لا يستطيع أن يشرب الماء مع شعبه ••

أى يجب خلعه ••

ولكن عملية الخلع لا تتم — هكذا بسهولة — فلا بد أن تقدم الأدلة لشيوخ القبيلة •• وتفحص جيدا •• وقد تعقد بعدها محاكمة سرية لا يحضرها الملك •• ولا ينحى الملك الا بقرار « جماعى » من الشيوخ وحكمائها ••

ويأتى بعد الشيوخ الوزراء وهم الذين يتولون الادارة السياسية فى مجتمع الاكان .. وهؤلاء ينتخبون ويوزعون على مهام متخصصة لادارة مهام دولة الاكان .. وحول الملك ترى موظفين لهم مهام غريبة ..

منها « الاكيارميهيون » وهو الناطق بلسان الملك اذ أن الملك لا يصح أبدا أن يتخاطب مباشرة الى شعبه .. وحامل الصولجان الذى يتخصص - هو ومساعدته - فى حمل صولجان الملك فقط ..

ثم حفار قبور الملك .. وهؤلاء مسئولون عن الحفرة التى تعلق فوقها جثث الملوك الموتى مدة ثمانين يوما حتى تجف نهائيا ويتم نقلها الى المدافن الملكية ..

ودولة الاكان مستقرة تماما ، ولا تعرف الفتن والاضطرابات اذ ان الاجراءات السياسية بها « ودية » خاصة وأن السلطان فيها يتم اختياره ويمكن عزله .. وبهذا لا يستطيع أن يظلم طبقة من الطبقات دون أن يتعرض لغضب شيوخ القبيلة ومحاكماتها السرية والعلنية .. ولذلك كان مجتمع الاكان مجتسا ديمقراطيا تسوده العدالة .. ولا يستمر فيه حاكم أحق أو ظالم أو فاجر ..

النظام القضائي

الملك ومستشاروه ، هم الذين يقومون بوظيفة القضاء في « دولة » الاكان .. ولما كان المجتمع بسيطا .. فلا يوجد في نظر القضاء فرق كبير بين المخالفات المدنية والجنح الجنائية .. ويمكن أن يحول الخصم القضية من جنحة جنائية الى مجرد مخالفة مدنية اذا أقسم اليمين على صحة كلامه .. ولا يوجد في هذا المجتمع سجون أو عقوبة بالحبس بالعقوبات لا تعدو الموت أو الغرامات ..

وكان يسمح للقاتل المحكوم عليه بالاعدام أن ينفذ الحكم في نفسه عن طريق التفجير أو اطلاق الرصاص على نفسه ..

وتتم عقود الزواج بدفع المهر .. وعندما يكتشف الأهل أن إحدى فتياتهم فقدت عذريتها - قبل الزواج - فهذا سبب كاف للطلاق واستعادة المهر .. على أساس ان الزوجة « تعاقدت » مع العريس على بيانات « خاطئة » ..

أما اذا ثبت كذب الزوج .. فمن حق الأهل استدعاء العريس ومطالبته بالتعويض على الاضرار التي لحقت بالفتاة ..

والزنا - في قوانين الاكانيين - تعتبر « جنحة » بالنسبة للمرأة المتزوجة فقط ويتعرض رفيقها الى الغرامة .. وفي وسع

الزاني أن يحتفظ برفيقته الزانية كزوجة له على شرط أن يدفع تعويضا مناسبا للزوج « الذي أسبىء له » !! ويشمل هذا التعويض قيمة المهر .. والنفقات التي تحملها عن زوجته حتى يوم « الحادث » !!

وقد حدث ان استغل أحد الخبثاء من قبيلة « اكواموا » هذا القانون .. فتزوج عددا كبيرا من نساء القرى التي زارها ثم غاب عنهن عاما كاملا .. وعندما عاد أخذ يجمع التعويضات « الحتمية » عن زوجاته « الخائنات » وكانت كثيرة ..

المنتصر يعود باذن

✧ التنظيم العسكري :

أما الشؤون العسكرية عند الاكانيين فهي تدار تحت اشراف قائد أعلى يكون - عادة - من بين كبار المحاربين القدامى .. وهو مسئول عن تنظيم واعداد الجيش لحالة الحرب وتعيين الضباط وتنظيم القوات المحاربة ..

والى جانب هذا القائد محارب آخر يطلق عليه « قائد الخطط العسكرية » .. وهو الذي يضع الخطط للحملات

الحرية ، ويكون مستشارا للقواد في رسم العمليات الحربية وتنسيقها ..

وكان « الاكانيون » يقودون جنودهم على شكل طائفة جناح أيمن وأيسر والقائد في الوسط والملك في المؤخرة .. وهو غير مسئول عن الحملة حتى لو اشترك فيها فعليا .. وكل وحدة عسكرية مسئولة عن تموين نفسها .. ومدعمة بكل ما تحتاجه من الأسلحة ومن أطباء الميدان .. فالانضباط صارم وعقوبة التراجع في معظم الحالات هي الموت ..

وكان في وسع الاشاتنى وهم خير محاربى الاكان أن يدفعوا الى المعركة بنحو مائة ألف رجل في وقت واحد .. وكان جيشهم يؤلف منظرا براقا حتى وهو في الميدان .. فلكل مجموعة عملها الخاص وعندما يرافق الشيوخ الجيوش نراهم يجلسون تحت مظلاتهم الحربية الكبيرة الملونة والموشحة بالخيوط الذهبية ..

واذا ما انتهى القائد من مهمته الحربية فليس في وسع القائد أن يعود الى العاصمة الا باذن من الملك .. فان ذكاء ملك الاشاتنى يجعلهم حذرين من رجوع قادة الجيوش المنتصرة .. خوفا من غرور القادة .. والطمع في كرسى العرش فإذا عاد - بعد أربعين يوما من الاذن - كان ذلك في شبه عرض عسكري أمام الملك .. وكان على كل وحدة أن تطلق في

الهواء الرصاص عندما تمر بالملك .. اظهارا للولاء للحاكم
الفعلى .. ملك القبيلة وحكيمها المقدس .. وكبيرها ..
كانت درجة انتصارات القادة ..

✧ تفكيرهم الأدبي :

ويعكس الفكر الأدبي لبعض أدبائهم حياة الاكانيين المتصقة
بالطبيعة ويعكس - أيضا - مزاجهم الحزين فالبسمة - دائما -
تعبير عما يجثم على صدورهم من ضيق .. ولاشك ان هذا
الارث الحزين يجد منبعه في نظرتهم الغيبية للأمور فاعتقادهم
القائل بان الناس والأرواح عالم واحد يحقق قدرا واحدا لا يمكن
أن يؤدي الى شيء من الانتعاش النفسى والاشراق الفكرى ..
وقد تجسدت هذه النظرة الحزينة في أفكارهم .. التى تنطوى
على شيء من الاجلال والرغبة للقضايا الروحية .. وعلى الجدية
الكاملة فى معالجة سير الأحداث اليومية .. وعدم الانبهار
أول الانتشاء - بكل ما يحدث فى الحياة الدنيوية .. فهى
حياة مؤقتة فى النهاية .. جسر الى حياة الأرواح الخالدة ..

✧ انعكاس القديم :

من هذا النموذج القديم للفكر القبلى يمكننا أن نستنتج
بعض ما يمكن أن يصيبه هذا الفكر من تأثيرات سلبية
أو ايجابية فى اطار الحياة الحديثة التى تتطلع اليها افريقيا ..

فمثلا نظرتهم « الغيبة » للحياة اليومية وسيطرة القوى
الروحية على تصرفاتهم قد تعترض النظرة العلمية في حل مشاكل
التخلف عن طريق الاحصاء والتخطيط .. بل قد تعترض التفسير
العلمي لهذه المشاكل ..

كما أن الارتباط الأسرى بالعشيرة وما يتعلق به من الخوف
والرهبة .. والتقديس لأوامر الشيوخ الكبار قد تقف عقبة
في محاولات الحكومات الافريقية في اذابة هذه « المشاعر
المحلية » .. وادماجها في داخل « المشاعر القومية » للدولة ..

وعلى العكس من ذلك .. فقد نرى في نفس هذا الفكر
ما يتمشى مع النظرة الحديثة للأمور ..

ففلستهم في تكوين الجهاز الحاكم تقترب كثيرا من المفهوم
الديمقراطي .. انه يحكم باسم الشعب .. وسيصل الى الحكم
عن طريق الانتخاب .. و .. يمكن - في حالة الخطأ -
عزله ..

كما أن تنظيماتهم العسكرية الدقيقة .. تسهل على الحكومة
ادراجهم في سلك النظم الحربية الحديثة .. ويصبح التغيير
بالنسبة لجنود القبيلة هو مجرد تغيير في « الشكل العسكري »
لا في المضمون ..

من هذا نفهم أن الفكر القبلى فى بعض البلاد الافريقية
الحديثة — مثل غانا — لا يشكل دائما عقبة أمام النظرة المعاصرة
لمشاكل التخلف ، ومحاولات التغيير باتباع الأساليب التكنولوجية
الحديثة ، بقدر ما يكون فى كثير من الأحيان عاملا مساعدا فى
عملية التغيير ذاتها ..



المشهد رقم (٨)

عندما شعرت ((البرد)) في جهنم خط الاستواء

عشت على خط الاستواء نفسه أكثر من ثلاثة أسابيع ..
ولم أشعر يوماً واحداً بمثل تلك الحرارة التي نعيشها أحياناً في
القاهرة أو السعودية في الصيف وعلى العكس .. فقد ارتجف
جسدي أكثر من مرة من « برودة » المنطقة الاستوائية ..
ولهذا .. فقد كدت أموت من الغيظ - ذات مرة - وأنا
استمع الى مذيع تليفزيوني يقول .. تعليقاً على التدريبات التي
يمر بها رجل الفضاء .. أن رجل الفضاء عليه أن يتدرب داخل
جهاز معين على درجة حرارة عالية .. كذلك التي يتعرض لها
سكان خط الاستواء !!

ثم قال حضرته انها تصل الى ٤٧ درجة مئوية ..
 كنت أود أن يزور سيادته معى فى المنطقة الاستوائية
 ليعرف بنفسه ان درجة الحرارة هناك ثابتة ولا تزيد « اطلاقا »
 على ٣٦ درجة مئوية ..

وكنت أود أن يكون معى فى الطائرة التى حلقت بى فوق
 المنطقة الاستوائية ذاتها .. وان يهبط معى بنفس الطائرة فى
 مطار « ليرفيل » وهى مدينة على خط الاستواء ذاته ليرى
 بنفسه الناس هناك .. وكيف يمشون فى الشوارع بملابس كاملة
 وثقيلة .. ولا يحس معهم بنصف الحرارة التى كان يشعر
 بها وهو يذيع هذا الكلام ..

بل كنت أود أن يكون حضرة المذيع معى فى مطار
 لاجوس - وهى مدينة فى المنطقة الاستوائية - ليرى كيف صعدنا
 وسط جو عاصف بارد ممطر وبالبذل الكاملة فى الطائرة العربية
 المتجهة الى القاهرة .. ثم .. ليرى كيف أن ركاب هذه الطائرة
 لم يخففوا ملابسهم الا بعد أن تجاوزت الطائرة المنطقة
 الاستوائية .. الى تشاد وليبيا ..

ثم كيف أننا جميعا وددنا لو خلعنا ملابسنا تماما عندما
 هبطت الطائرة بنا فى مطار القاهرة الدولى .. فقد كان الوقت
 صيفا ..
 ولكن .. لماذا أحاول ادعاء المعرفة .. وأتحامل على

صديقنا المذيع .. ولقد وقعت أنا في نفس الخطأ بصورة أكثر
سذاجة ..

حر .. وبرق .. وورعد .. ومطر

كان ذلك عندما دخلت الباخرة التي تحملنى الى الكونغو
وتقترب في ببطء من خط الاستواء .

قال لى قبطان الباخرة .. سنمر بعد ساعات على خط
الاستواء ..

قالها في لهجة مليئة بالفخر والسعادة لم أجد تفسيراً لهما
فسألته :

— وما هو سر سعادتك ؟

قال الرجل بلهجة أكثر فخراً :

— انها لحظات تذكارية يا صديقى .. ويكفى أن تعرف
أن شركات الطيران العالمية تعطى ركابها شهادات عبور خط
الاستواء كلما مرت طائراتها من فوق هذا المكان ..

وهزئت رأسى بلا مبالة .. ليس لأنى عبرت هذا الخط
أكثر من مرة ولكن لعدم قدرتى على مشاركة سعادته .. لأننى
كنت خائفاً فعلاً من عبور هذه المنطقة فأنا لا أطيق الحر ..
ولا أستطيع تحمله .. كان لدى اعتقاد — حسب ما سمعت —
اننى ساصاب بضربة شمس .. أو شئ من هذا القبيل ..
وكنت أخاف المرض فى هذه المنطقة النائية بالذات ..

و •• أعددت نفسى تماما لجميع الاحتمالات « الحارة »
 خلعت جميع ملابسى •• ووقفت تحت الدش البارد لمدة ساعة
 كاملة •• حتى تبرد دماء الدورة الدموية فى جسدى ••

وذهبت الى كايينتى •• وفتحت النافذة والباب على
 مصراعيه •• ونمت على السرير بالمأيوه فقط بعد أن سلطت
 المروحة المدارة بأقصى سرعتها على جسدى ••

و •• انتظرت ••

وعندما اقتربنا من خط الاستواء كنت اعتقد أن جسدى
 « سيسيح » من الحر ولكن عندما مرت الباخرة تماما فوق
 خط الاستواء ظل جسدى تماما كما هو •• أما الذى « ساح »
 فعلا فهى كل المعلومات التى قرأتها فى كتب الجغرافيا عن هذه
 المنطقة ••

لقد كان احتكاكى بمناخ خط الاستواء احتكاكا مثيرا
 ومبهرا ••

فبدلا من الشمس •• كانت السحب الكثيفة تغطى كل
 الأفق ••

وبدلا من الحر •• كانت نسمات الهواء الباردة قوية ••

لقد اختفت الشمس تماما •• وكانت السماء ملبدة بتلك
 السحب السوداء الثقيلة التى لانراها الا فى سماء أوروبا • ثم كان

الرعد العنيف الذى ينافس أصوات القنايل الثقيلة .. والبرق الذى « يزغلل العيون » .. ثم ذلك المطر الكثيف الذى لم أشهد له مثيلا فى حياتى .. وبدأ الهواء البارد الثقيل يتسلل فى عنف الى كايينتى .. وأحسست اننى ساصاب بالتهاب رئوى .. ان لم أسرع وارتندى ملابسى ..

وكان منظر المطر غريبا .. لقد استطاع من غزارته .. ان يحجب عنى الأفق .. وأحسست ان مياه المحيط تكاد ترتفع الى الضعف وتغطى شاطئى قارة افريقيا الذى كنت أراه عن بعد .. واستطعت أن أقتنع لأول مرة كيف تتكون الأنهار الكبرى .. فلم تكن أمطار القاهرة ولا الاسكندرية تقنعنى أن فى امكانها تكوين ولو ترعة صغيرة ..

هنا الطبيعة بكل عنفوانها وقسوتها ..

هنا .. وهنا فقط يمكن أن تتكون الأنهار ..

هنا .. يبدأ كل شىء فطريا .. عرييدا عنيفا ..

هنا يمكن أن يبدأ نهر النيل هادرا .. ثم ينتهى إلينا ..

أكثر رقة وهدؤا .. ونعومة ..

وأفقت من خواطرى لاكتشف وكأئننى أقف على شاطئى

الاسكندرية فى عز الشتاء !!

أين الحر ؟ .. أين ضربة الشمس ؟ .. أين جهنم خط

الاستواء ..

ووجدت صوتا خبيثا ساخرا .. يرد على أسئلتي الحائرة ..
 لقد هربت جميعا لتستقر في كتب الجغرافيا ..
 و .. شغلتنى فعلا هذه المسألة .. كيف أكون في خط
 الاستواء وفي فصل الصيف ولا أشعر حتى بربع ما أشعر به
 من حرارة صيف القاهرة ..

مقلب استعماري

وقال بعض المؤننين بكتب الجغرافيا .. ان معظم المدن
 التي تمر بها موانئ مما يخفف من حرارة الجو ..
 وتعمدت زيارة « لا جوس » في نيجيريا و « برازافيل »
 في جمهورية الكونغو وهي مدن تبعد كثيرا عن البحر وتمر
 بمنطقة خط الاستواء ولم أعثر على الحر ..

وقال لي بعض خبثاء السياسة - الذين احتاروا مثلي في
 حرارة خط الاستواء - يبدو أن أول من كتب عن مناخ خط
 الاستواء - كانوا كالمبشرين لهم ميول استعمارية .. لقد أرادوا
 أن يخيفوا الناس من حرارة هذه المنطقة وجاءوا هم ليعيشوا
 هنا وسط هذه الجنة التي نراها والاما استطاعوا بناء هذه

المدن الضخمة وأن « يتستعوا » بين ربوعها هذه المدة الطويلة..

ولم اقتنع بهذا التفسير ..

حتى التقيت بأحد علماء الجغرافيا « المحايدين » في جامعة

لاجوس بنيجيريا ..

قال لى الرجل :

— الواقع ان علماء انجغرافيا عندما قرروا ان هذه

المناطق أشد المناطق حرارة في العالم كانوا مبالغين بعض الشيء...

وقد انطلق كلامهم هذا من خلال حقيقة واحدة .. وهي

اقتراب قرص الشمس من الأرض في هذه المنطقة أكثر من أى

مكان .. ولكن اقتراب قرص الشمس هنا يزيد من درجة

تبخير مياه المحيطات .. فتتكون السحب هنا بشكل كثيف

مما يحجب الشمس وحرارتها عن الناس طوال شهور السنة ..

هذه واحدة ..

والثانية .. الأمطار التى تتساقط باستمرار فى هذه المنطقة

من هذه السحب تتسبب فى انخفاض درجة الحرارة الى درجة

كبيرة .. والعامل الثالث .. هذه السحب والأمطار .. تتسبب

فى انبات هذه الغابات الكثيفة مما يزيد من مساحة الظلال التى

تساهم فى تخفيض درجة الحرارة ..

أما المناطق التى تبعد عن المنطقة الاستوائية فهى أقل حرارة

فعلا .. ولكن الشيء الوحيد الذى يضاعف من درجة حرارتها - أكثر من خط الاستواء - هو وجود مناطق صحراوية شاسعة بجانب مدنها مثل ما هو حادث فى القاهرة ومكة وأسوان مثلا ..

وكان هذا هو الكلام المقنع الوحيد الذى سمعته عن هذه الظاهرة الغريبة فى خط الاستواء ..

البلاجات خالية

اذن فمنطقة خط الاستواء - حسب كلام العالم - ليست منطقة حارة ..

والدليل الواقعى على ذلك .. هو بلاجات خط الاستواء ..

انها دائما خالية من الافريقيين .. ولو انهم شعروا فعلا بحرارة بلادهم طوال هذه القرون التى عاشوها لكانوا أول من كونوا البلاجات الجميلة .. وخاصة أن خيرات بلادهم .. وامتلاء غاباتهم بكل ما يحتاج اليه الانسان من وسائل العيش جعل لديهم فراغا هائلا .. وهذا الفراغ كان سيدفعهم بلاشك الى أن يكونوا أول المجموعات البشرية التى تعرف طريقها الى البحر والبلاج ..

ولكن الذهاب للبلاجات في افريقيا ما زالت عادة أوربية..
والافريقى لا يذهب الى البلاج ، أو يلبس المايوه الا اذا
كان متزوجا من أوربية وهو يذهب هناك كارها وتحت ضغط
الرغبة في ارضائها وغالبا ما يجلس هو تحت الشمسية ليحرس
ملابسها ويتمتع بمشاهدتها وهى تسبح بمهارة بين أمواج المحيط
العنيفة ..

وكذلك الافريقيات .. رغم انهن يخلعن نصف ملابسهن في
المدن وفي مكاتب العمل لتعودهن على الحياة المنطلقة في الادغال
والمناطق الواسعة فانهن لا يذهبن الى البلاج الا بالملابس
الكاملة و .. للفرجة فقط ..

لقد زرت بلاج داکار في السنغال .. وبلاج أكرافى غانا
وبلاج بوانت نوار فى الكونغو برازافيل .. كما زرت حمامات
سباحة فى برازافيل ونيجيريا .. ولم اشاهد افريقية واحدة تلبس
المايوه ..

وكنت اعتقد بعقليتى الشرقية ان السبب هو التقاليد
أو الرغبة في التحشم ..

ولكن ملكة جمال نيجيريا همست فى أذنى بشيء آخر
تماما ..

قالت : ان الفتاة الافريقية لا تحب الملابس الضيقة بوجه

عام .. ولا تحب أن يختنق جسدها — عند الاستحمام بأى نوع من الملابس حتى لو كان المايوه البكىنى ..

كما أنها لم تتعود أبدا الاستحمام فى المياه المالحة ولأنها بفطرتها وجدت أنه يضر بشرتها التى تهتم بالمحافظة على نعومتها .. وسكنت ملكة جمال نيجيريا ثم قالت :

— ان متعة الاستحمام الحقيقية لدى الافريقية مازالت تنبع من الفطرة ومن الطبيعة ..

وتظاهرت بالغباء وتساءلت قائلاً :

— يعنى ايه ؟

فقالت ضاحكة :

— أنها مازالت تفضل أن تستحم عارية فى مياه الأنهار العذبة ..

رحلة الى خط الاستواء

ولكن هل هناك — فعلا — خط استواء ينتصف العالم .. بالطبع جغرافيا .. الاجابة نعم وهو خط وهمى .. يضعه الجغرافيون على الخرائط ولكن ما فوجئت به فعلا .. وأنا أزور كمبالا ونيروبى — وهما بلدان يقعان فعلا قرب خط الاستواء ..

ان الجغرافيين يضمنون هذا الخط فعلا .. وبدقة متناهية ..
 في ضواحي العاصمتين .. وقد رأيت كثيرين من زوار
 العاصمتين .. يزورون هذه المنطقة .. لمشاهدة خط الاستواء ..
 على الأرض فعلا ..

وعلى الفور طلبت من مرافقتي .. أن يعد لنا رحلة الى
 خط الاستواء ذاته .. أى الى منتصف الكرة الأرضية ..
 بعد حوالي ٤ ساعات بسيارة خيب .. توقف بنا الرجل ..
 فاذا بنا أمام خط أبيض ينتصف طريق أسفلتي .. وفي طرفي
 الخط دائرتين يبدأ عند منتصفهما بالضبط هذا الخط ..

كانت لحظة نادرة .. عندما شعرت أنني أقف فعلا على
 خط الاستواء .. فوق هذا الخط .. تشعر أن قدميك يقفان
 وسط الكرة الأرضية .. بل انك عندما تجعل خط الاستواء
 هذا يمر بين قدميك ، فسوف تشعر أن نصفك في شمال
 الكرة .. والنصف الآخر في جنوبها ..

وهذا ما يفعله معظم زوار نقطة خط الاستواء .. انهم
 يضعون قدما شمال الخط وقدما جنوبها .. ثم تلتقط الصورة
 النادرة الوحيدة .. الذى يستطيع بعدها أن يقول لأقرانه عند
 العودة .. هذه صورتي أقف فيها وسط الكرة الأرضية
 بالضبط
 انهم يقطعون الاف الأميال .. من أجل هذه الصورة

الشخصية النادرة .. ولكننا كنا أكثر حظا .. فقد قطعنا بضع عشرات من الكيلو مترات .. لكى ننقل لك أول صور عند خط الاستواء .. فقد كنا قريبين منها فى أوغندا وكينيا ..

فى أحراش افريقيا الاستوائية

ولكن بعيدا عن خط الاستواء نفسه ..
فليس هناك .. أى منطقة فى الدنيا تضارع افريقيا الاستوائية .. فى فطرتها .. ووحشية أدغالها .. وقمم جبالها المغطاة بالثلوج .. الى جانب أنهارها العارمة .. وأشجارها العملاقة المعبقة بروائح البخار الممزوجة بعطر نباتاتها المتسلقة .. وفى غابات الكونغو برازافيل .. التى اخترقت وسطها على ظهر باخرة .. تمضى عبر نهر الكونغو كنت لا المح — من خلال النافذة — سوى عدد ضئيل جدا من المواطنين .. والغريب أننى مررت بأقزام لا يزيد طولهم عن مائة وعشرين سنتيمترا .. وأحيانا عمالقة يزيد طولهم عن مترين *

وعلى طول الطريق كنت اشهد طيور « قاق الماء » و « العجاج » و « البلاشون » الأسود الرأس .. الى جانب طيور مفترسة كالنسر الأسود ، والصقر البنى الذى يعيش على اصطياد الخفافيش ..

وخلال الرحلة - أيضا - كنت ألحظ على أرض الغابة
الطينية آثار أقدام أفيال .. وهو أحد الثروات الهامة لسكان
الغابة .. أحيانا يصيدونه من أجل أنيابه .. وأحيانا أخرى
يذهبون لمقبرة الأفيال .. حيث يذهب لها الأفيال من تلقاء
أنفسهم عندما يشعرون بدنو آجالهم حتى يلفظوا أنفاسهم
الأخيرة .. في صمت بجوار أجدادهم العظام ..

أحيانا كنت اشهد بعض النمرود ترقد فوق فروع الأشجار
في سلام .. بعد رحلة عنيفة من القنص .. أو أسد يصحب
وليده للشرب في وداعة من أحد المنابع .. والغريب أننى كنت
اشاهد بعض الأطفال في الغابة .. يستحمون ويلهون بجوار مثل
هذه الحيوانات المفترسة .. وعندما سألت أحد الأفريقيين في
الباخرة .. عن سر عدم خوفهم من هذه الحيوانات المتوحشة ..
ذكر لى عدة حقائق جديدة ..

* ان احدا لا يخاف الأسد .. لانه لا يرهق نفسه وراء
عملية صيد .. فاللبؤة - زوجته - هى التى تقوم بهذا
العبء .. أما هو - كملك - فان الضحية توضع بين
قدميه ..

* أخطر ما فى الغابات الاستوائية .. هى الغوريلا ..
صحيح انها لا تأكل اللحم .. ولكنها غبية .. وأحيانا تهاجم
الانسان فى غفلة منه .. وكل ما تفعله هى انها تحتضنه فقط ..

فتكسر قفصه الصدرى حيث يموت بعد أيام أو شهور ..
حسب درجة « حرارة » الحزن القاتل ..

* أقوى حيوان داخل الغابة وخارجها الجاموس الوحشى
ولا يقتل القيل داخل الغابة .. سوى أسراب النمل التى تمضى
بالملايين .. واذا تصادف وداس على أحد هذه الأسراب بقدميه
الغليظة .. كما لا يقتل الجاموس الوحشى خارج الغابة سوى
الانسان .. بذكائه ورصانه ومتفجراته ..

* ومن أخطر حيوانات أحراش افريقيا النمر الأرقط ..
وهو يعيش فى المناطق العميقة فى الادغال .. وهو بعكس
الأسد - حيوان انفرادى يندر ان ينتقل كالأسد فى جماعات -
واذا هاجم نمر الأرقط فانه يقاتل حتى النهاية .. وبشراسة
مخيفة .. ولهذا يتجنبه أهل الغابة دائما ..

وعندما سألت رفيق الباخرة عن الأقزام والعمالقة الذين
شاهدتهم قال لى هذه الأقزام منتشرة فى غابات الكونغو ،
ويطلق عليهم « تيكى تيكس » .. ولا يزيد وزن الواحد منهم
عن ٣٦ كيلو جرام .. والنساء ٣٠ كيلو جرام .. عندما يولد
الطفل يكون نحىلا فى حجم الأرنب .. ومع ذلك فهم - طيبا -
مكتملوا النمو .. وهم ينحدرون من سكان افريقيا الأصليين
ولون جلودهم بخلاف جيرانهم العمالقة ورغم قصر قاماتهم
فهم معروفون بالمرح والشجاعة .. وهم جوالون .. من النادر

أن يمشوا في معسكر واحد .. وكان جيرانهم العمالقة - مترين
فأكثر - يستخدمونهم كعبيد .. أو يدفعون بهم الى الغابات
للصيد .. فهم لا يعرفون الغرس أو الزرع وهم يخشون أى
غريب - ويخنفون فى ثوان .. اذا اقتربت منهم قدم أجنبى ..
ولا أحد يستطيع ملاحظتهم لانهم يسلكون فى الغابة طرقا
ملتوية ضيقة لا تتسع الا لأقدامهم .. وأجسامهم الصغيرة ..
ومعسكرات الأقزام لا تحتوى على أى أثاث - فالسراير
مجرد أوراق موز مفروشة على الأتربة .. وليس لديهم آنية
للطبخ .. طعامهم يؤكل اما نيئا أو مشويا .. وكل ما يملكه
هؤلاء الأقزام هى الأقواس والسهام والرمح ..

وعند الانتقال فهم لا يحملون سوى الصغار الذين
لا يحتملون المشى .. ولهم مهارة « النسايس » فى الانتقال على
قمم الأشجار .. وهم يظلون كذلك .. لمسافات شاسعة دون أن
تلمس أقدامهم الأرض ..

ومن غرائب « طاقات » هؤلاء الأقزام .. انهم رغم صغر
حجمهم ففى استطاعة الواحد منهم التهام سباطة موز من ٦٠ صابع
فى وجبة واحدة .. وهم مولعون بالملح لأن الادغال لا تحوى
سوى المياه الحلوة ..

ورغم أن حياتهم قاسية وغير محتملة .. فهم قوم مبتهجون
ويطلقون على أنفسهم « الصغار » ويشيرون الى جيرانهم

الافريقيين بأنهم « الناس الحقيقيون » وجيرانهم من قبائل « مانجيتو » وأنوس يعتبرون مردة بالنسبة لهم .. حيث تتراوح قامتهم بين مترين ومترين وعشرة سنتيمترا .. وأجسام العمالة برونزية اللون .. ويرتدى الرجال مآزر مخططة باللون الأسود والأبيض والبنى .. في وسط حزام من الجلد .. أما النساء فبعضهن لا يهتم بتغطية صدورهن - وخاصة قبائل الماساي في كينيا والبعض يعطين .. وتغطي رؤوسه حلية سمكية من سلوك النحاس اللامع ..

ومن أغرب ما تفعله أمهات قبيلة « مانجيو » انه عندما يولد لهن طفل .. يربطن رأسه بالياف محكمة حول رأسه .. وتزيدها الأم - احكاما - كلما تقدم طفلها في العمر .. وعندما يصل الطفل الى البلوغ يكون رأسه قد أخذ شكلا يضاويا غريبا ..

ويدعى حكماء القبيلة ان هذا التشكيل .. يضع المخ في وضع .. يجعل الطفل أكثر ذكاء ..

هكذا يعتقدون .. والعادة مازالت مستمرة لأنها لا تؤلم الطفل فهي تحدث تدريجيا .. ولا تثير صراخ الأطفال ..

المشهد رقم (٩)

نصف غرب افريقيا . . مسلمون

صليت العيد فى السنغال ، وحضرت الجمعة فى غانا . .
وعشت مع ٥٠ مليون مسلما فى نيجيريا ، واكتشفت عشرات
المآذن وألوف المسلمين فى الكونغو ، حدث كل هذا بينما
كنت أعتقد أننى أزور بلادا لا يعيش بها مسلم واحد . .
ولكن هذه هي الحقيقة . .

لم يخطر ببالى — ولو للحظة واحدة — أن ذلك المبنى . .
العظيم المرتفع . . الناصع الذى أراه من شرفة باخرتى . .
وهى تقترب لأول مرة من شواطئ افريقيا عند مدينة داکار . .
« هو » مئذنة جامع . .

بل . . لم يخطر ببالى أننى سألتقى طوال رحلتى بغرب
افريقيا بمسلم واحد . .

وكانت كل معلوماتي .. عن الفتح الاسلامي انه وصل
أقصى متناه الى جنوب فرنسا غربا والى الهند وبعض بلاد
جنوب شرق آسيا ..

أما في افريقيا فلم أكن أسمع عن مسلمين سوى في السودان
والصومال وزنبار قبل أن تتحد مع تنجانيقا ..
وكانت دهشتي أكبر عندما رست الباخرة في الميناء الأنيق
« داکار » .. والتف بعض الافريقيين حول الباخرة ، وعندما
علموا انها قادمة من مصر .. بلد الأزهر الشريف .. سعدوا
في لهفة غير عادية .. وكانت أول كلمة قالوها لنا بلغة عربية
سليمة :

— السلام عليكم ..

وعندما ذهبت — في اليوم التالي — لزيارة محمد يحيى حسن
سفيرنا هناك وأعربت له عن دهشتي فاجأني قائلا :
ان البلد الذي تزوره الآن — السنغال — ٩٠٪ من أهله
مسلمون وعلمت بعد مقابلتى مع السفير أن :
— ٥٠٪ من غرب افريقيا مسلمون ..
— ٩٠٪ من موريتانيا ومالي والسنغال مسلمون ..
— عدد المسلمين في نيجيريا — وحدها — ٥٠ مليون
مسلم ..

— أن الاسلام وصل في زحفه جنوب غرب افريقيا
الى الكونغو ليوبولدفيل .. « كينشاسا »

التجار .. والمرابطون

ومن خلال مقابلاتي مع زعماء المسلمين في غرب افريقيا .. علمت أن الاسلام دخل الى هذه المناطق عن طريق تجار شمال افريقيا الذين كانوا يقومون برحلات تجارية الى السنغال وغانا وغينيا .. وكان الاسلام في هذه الفترة ينتشر بطيئا عن طريق الاحتكاك اليومي بين هؤلاء التجار وبين أهل هذه البلاد ..

وعندما قامت دولة المرابطين - من قبائل المغرب البربرية - تغير شكل الدعوة للاسلام من مجرد الاحتكاك اليومي التلقائي .. الى الاحتكاك المنظم المتعمد لنشر الدعوة عن طريق (الدعاة) أولا .. والفتح ثانيا ..

ولكن من هم المرابطون ؟ ..

بدأت قصة المرابطين .. عندما شعرت قبائل البربر المغربية بضرورة الوحدة تحت زعامة دينية قوية تقف في وجه القوة الوثنية التي تسيطر على امبراطورية (غانة) الوثنية وتتمكن من نشر الاسلام في افريقيا ..

وبعد نزاع طاحن استولت قبيلة (جذلة) على القيادة وعاد أميرها (يحيى بن ابراهيم) من الحج مصطحبا معه أحد دعاة الحجاز ويدعى (عبد الله بن ياسين) ليقوم بتفقيه القبيلة ..

وكان هذا الرجل شعلة من الحماس .. وعلى قدر كبير من العلم والذكاء ..

ورغم اخلاصه في الدعوة فلم يلق الرجل نجاحا يذكر بين أفراد القبيلة فانسحب مع بعض اتباعه ومريديه الى الجنوب ، وأقام في جزيرة على مصب نهر السنغال سماها (الرباط) .. ومن هذه الجزيرة بدأ يرسل اتباعه الى أدغال افريقيا لنشر الدعوة الاسلامية خاصة بين القبائل الوثنية ..

وعاش بن ياسين في هذه الجزيرة حياة الزهد والورع فتآلف الناس حوله ، وذاعت شهرته ، واتخذ لنفسه ولا اتباعه لقب المرابطين .. (أى أهل جزيرة الرباط والعاملين بمبادئه) .. وقد ظل المرابطون يعملون على نشر الدعوة وتفقيه الناس بأصول الاسلام وما ان اكتملت قوتهم وأحسن (بن ياسين) بترابط أنصاره حوله حتى هاجم مملكة غانا عام ١٠٥٦ .. وأعلن الجهاد ضد الوثنية ، وانضمت القبائل الافريقية الى دعوته وأسلمت على يديه ..

وبينما كان (بن ياسين) يقود احدى المعارك الطاحنة استشهد وانفرد أحد أنصاره بالزحف نحو الشمال ، وبهم استطاع (يوسف بن ناشفين) تأسيس (دولة المرابطين) فيما بعد بينما قام تلامذته بمحاصرة (كومبي) عاصمة غانا عام ١٠٧٦

ثم فتحوها وأسلم عدد كبير من أهلها كما أسلم — باختياره — ملكها « تانكامنين » ، وظل المسلمون يحكمون هذه الامبراطورية ويحولون فكرها الديني من الوثنية الى التوحيد حتى عادت الخلافات القبلية الى صفوف المرابطين فانتهزت (غانا) الفرصة وطردتهم من العاصمة عام ١٠٧٨ الا أن تأثير الاسلام كان قد تغلغل في غرب افريقيا .. وانتشر بين الملايين ..

المهم ..

هكذا دخل الاسلام الى افريقيا ولم يجد الفكر الاسلامي صعوبة كبيرة في الانتشار هناك لسببين :

* الأول :

ان القيم الوثنية التي تعتمد على الخرافة والوهم والأساطير والقوى الخفية لم تستطع أن تقف أمام « واقعية » الاسلام ووضوحه وبساطته ..

* الثاني :

ان تعاليم الاسلام كانت قريبة من آمال السود وآلامهم بل كانت قريبة من عاداتهم وتقاليدهم .. فتحريمه الرق .. ودعوته للمساواة .. وللعدالة الاجتماعية و .. و .. غيرها من المبادئ .. كانت تجد صدى في نفوسهم ..

ماذا بقى من الاسلام

والسؤال الآن :

بعد هذه السنين الطويلة من « الوجود الاسلامى » فى افريقيا .. ماذا بقى من الاسلام فى اذهان الافريقيين ؟ ..

الواقع أن هذا السؤال قد قفز الى ذهنى بعد أن اتيج لى أن أحضر صلاة العيد فى داكار .. شاهدت آلاف المسلمين يحضرون بملابسهم البيضاء المعطرة النظيفة يصحبون أولادهم الصغار ، ثم يجلسون فى صفوف منتظمة وأمامهم رئيس الجمهورية القديس ليوبولد سنغور القيس المسيحى يحضر الصلاة مع سفراء الدول الأجنبية .. يحضر فى موكب مشير من الجياد التى يمتطيها فرسان موشحون بملابس حمراء وزرقاء ..

كل هذا جميل .. ويدل على .. تسامح متبادل ، رغم أننى لم اكن أهضم أن بلدا ٩٠٪ منها مسلمون يحكمها رجل مسيحى

ولكن الذى لفت نظرى وأثار أسفى .. ان هذه الآلاف تجلس فى صمت غريب ليسمعوا خطاب العيد ولكننى شعرت ثم تأكدت أنها لا تفهم حرفا واحدا مما يقال .. فالخطبة كانت تتلى باللغة العربية ، واللغة المتبادلة هى الفرنسية أنها لا تفهم حرفا واحدا مما يقال ..

هذا من حيث المظهر الخارجى ..

ولكن الجوهر الاسلامى من الداخل .. كيف يفهمونه ؟
الواقع ان الاسلام هناك - لانه نزح من المغرب - تأثر
بالمفهوم « الفاطمى » فى مصر أيام الدولة الفاطمية .. فالاهتمام
شديد بالعبادات .. « والذكر » .. والمواكب والحفلات
وتعصب شديد للمذهب الشيعى وغيره من المذاهب الأخرى
« للأئمة » والزعماء الدينيين ..

فمثلا تجد أن المسلمين من السنغال مندرجون تحت ثلاثة
مذاهب : الماكية والتيجانية والمريدية .. ونجد الاتفاق بين
المذاهب الثلاثة على أن الله واحد وأن محمدا رسول الله ..
ولكن الخلاف يدور بين التيجانية والمريدية على طريقة تسييح
وميعاد ذبح ضحية العيد وغيرها من المسائل الفرعية الشكلىة ..
والتي يعطونها أهمية غريبة .. بعيدا عن فهم « جوهر »
الدين ذاته ..

والزعيم الدينى فى غرب افريقيا يحظى باحترام يصل - فى
بعض الأحيان - الى درجة التقديس تأثرا بمذهب « الامامية »
فى الشيعة .. ويبدو أن بعض هؤلاء الزعماء استغلوا
ثقة الناس بهم واستفادوا ماديا من هذا
الوضع .. وامتلكوا الضياع والقصور ويكفى أن نعلم ان
للزعيم الدينى مندوبا فى كل بلد وقرية يجمع « الهبات »
للشيخ ..

ويكفى أن نعلم أن هؤلاء الشيوخ أوهموا تابعيهم بأن في إمكان الشيخ أن يحج إلى بيت الله نيابة عن المريد .. وفي هذه الحالة فعلى المريد أن يسلم شيخه كل تكاليف الحج « نقدا » .. ثم يقوم الشيخ بالحج نيابة عنه وتكون النتيجة أن جميع نفود الحجاج تذهب إلى جيب الشيخ .. ويذهب هو ليحج لنفسه فقط .. فإذا علمت أن كثيرا من المريدين يرحبون بأن يحج الشيخ عنهم لأن حجه سيكون « أكثر بركة » ، وإذا أضفت لهذا أن تكاليف الحج من غرب إفريقيا إلى الحجاز باهظة و .. بالعملة الصعبة ، يمكنك أن تستنتج لماذا يمتلك هؤلاء الشيوخ الضياع والقصور !!

والواقع أن هذا الجهل الذي باعد بين المسلمين والاسلام هناك تقع تبعته كله على الاستعمار .. فقد كان الحاكم الاستعماري يحرم المسلم من حق التعليم .. لدرجة أن بعض أبناء المسلمين في شمال نيجيريا وفي الكونغو كانوا يغيرون أسماءهم من محمد وعبد الله .. إلى جورج وجيمس لكي يتسللوا إلى المدارس ويمنحوا أنفسهم فرصة حق التعليم في المدارس الحكومية ..

ولم يتوقف الجهل بين المسلمين على أحوال الدنيا .. وإنما زحف أيضا إلى أمور الدين الأساسية .. فمثلا نرى أن مواعيد الصلاة هناك « ثابتة » في الصيف والشتاء .. أنهم

يصلون الصبح ويطلقون عليه « سوبا » في الساعة الواحدة
ظهرا ..

والظهر « سالفانا » في الساعة الثانية ظهرا ..
والعصر « الانسارو » في الساعة الخامسة مساء ..
والغرب « فيذيرو » في الساعة السابعة مساء ..
والعشاء « ساكو » في الساعة التاسعة مساء ..

ومن هنا كانت مهمة رجال الأزهر هناك هامة وضرورية
وشاقة في الوقت ذاته ، وإذا كانت الحكومات الاستعمارية في
الماضي كانت تعتمد وضع العراقيين أمام البعثات الأزهرية ..
فإن رجال الأزهر الآن يجدون - في ظل العلاقات الطيبة بين
مصر والدول الافريقية - كل ترحيب من جمهور المسلمين ..
وقد دمت عينا أحد دعاة الأزهر ذات يوم عندما كان يسير في
أحد شوارع مدينة (كانو) في شمال نيجيريا عندما فوجيء بأن
المسلمين يسجدون له في الشوارع .. ولم يترك المدينة الا عندما
أفهمهم أن السجود في الاسلام لله وحده ..

وقبل أن أترك نيجيريا سمعت قصة عالم أزهري جليل
آخر ..

اكتشف هذا العالم ان إحدى القرى تعبد أوثانا من التماثيل
الخشبية فقام ذات ليلة وأحرقها عن آخرها .. وعندما اكتشف

الناس — وهم في ذهول — ان الهتهم قد أحرقتها انسان ..
 أقبلوا عليه ساجدين يريدون أن يعبدوه فما كان منه الا أن وقف
 فيهم خطيبا : « ما أنا الا أخ لكم .. جئت لأبشركم بالسه
 واحد .. قادر على كل شيء » .. وكانت مفاجأة عندما وجد
 هذا العالم الأزهرى ! هانى القرية في نهاية خطبته يدخلون في
 دين الله أفواجا ..

وكم من قرى في حاجة الى مثل هذا العالم الجليل ..
 ويكفى أن يعرف المسئولون عن الأزهر وعن المجلس الأعلى
 للشئون الاسلامية ان الكلمة الوحيدة التي كنت اسمعها من
 كل مسلم يقابلنى هناك .. بل من كل زعيم دينى مخلص :
 — أكثروا من بعثاتكم الأزهرية ..
 — أبعثوا لنا مزيدا من الكتب الاسلامية ..
 — لا تنسوا ان لكم اخوانا لكم يعيشون في السهول
 والوديان والأدغال في حاجة الى ما وهبكم الله من معرفة ..
 وأخيرا قال لى أحد زعماء المسلمين وهو يودعنى ويؤكد
 على ضرورة كتابة هذه الاستغاثة لا تنسى الحديث الذى يقول :
 « من علم علما فكتمه الجحيم يوم القيامة بلجام من نار » ..



المشهد رقم (١٠)

هنا ينبع نهر النيل

أخيرا استطعت أن أحقق أحد أحلامي العزيرة ..
 كمصرى وكصحفى .. لقد وصلت الى منطقة منابع النيل ..
 وهى منطقة قد تعنى أشياء كثيرة بالنسبة لسكان العالم ..
 وقد تجذب اهتمام السياح والمغامرين .. وقد تلفت انظار
 الباحثين عن المعرفة .. والكشف عن المجهول .. ولكن هذه
 المنطقة تعنى شيئا آخر بالنسبة لنا .. نحن الذين نعيش عند
 المصب .. مصب هذا النهر العظيم ..

ومن أجل هذا .. ذهبنا الى هناك ..

اقتربت الطائرة من مطار عنتيبي .. الميناء الأوغندى الذى
 يقع على شاطئ بحيرة فيكتوريا .. فوجئت من الجو بمشهد

البحيرة المثير .. وأول هذه المفاجآت .. كانت تلك المساحة الشاسعة التي تمثلها البحيرة تحتنا ..

المطار ملتصق بالبحيرة .. أحسست بطائرتي وكأنها تهبط في بحر كبير .. واتبنتى سعادة غامضة .. لم يكن هذا الاحساس نابعا فقط من مشهد البحيرة .. بزرقها الداكنة .. وارتفاع جبالها .. وخضرة أدغالها .. وانما كان نابعا من شيء أكبر .. انه ذلك الاحساس العظيم الذى ينتاب المصرى - أى مصرى - الذى يعيش منذ آلاف السنين عند مصب نهر النيل .. ويعرف ماذا تعنى منابع النيل بالنسبة له .. وبالنسبة لمصر ..

بهذا الاحساس المثير تعجلت اجراءات الجمرك .. وطلبت من مرافقى الأوغندى « تومالونج » الذهاب بى فورا الى شاطئ البحيرة .. كانت مياه البحيرة العظيمة تمتد أمامى حتى الأفق .. وكان بعض الهنود يستحمون فى مياه المنبع .. وبصراحة .. لم استرح لهذا المشهد .. اذ لم أكن أتصور أن منابع مياه النهر الذى اشرب منه .. يستخدم كبلاج لاستحمام الهنود وغير الهنود ! بل اننى لم أستوعب أن أرى على سطح هذه المياه .. ثلاث بواخر كبرى تمخر عباب الماء .. تضرب « برفاضاتها » مياهه المقدسة وتلتقى (بمخلفاتها) فى أعماق أمواجه الخالدة !!

فبحيرة فيكتوريا .. ومياها .. من المقدسا بالنسبة لى ..
وبالنسبة لأى مصرى أو سودانى ..

بعد جولات أخرى على شاطئ البحيرة .. اكتشفت أن
معظمها محاط بالجبال والأدغال .. وأن المكان الذى وقفت
فيه فى البداية يستخدم كبلاج اقربه من كمبالا عاصمة أوغندا ..
اتجهت للعاصمة .. وأنا فى شبه ذهول من مشهد
البحيرة .. ومما سمعته عنها من المهندس محمد عبد العال ..
مهندس الري المصرى هناك ووزير الري الأسبق .. قال لى رغم
كل هذه المساحة التى تراها .. فقد تدهش اذا علمت انه
لا يخرج لنا من هذه البحيرة سوى عشرين فى المائة من
مياها .. والباقى يذهب مرة أخرى متبخرا الى السماء
أو متسريا الى القاع .. فى منطقة المستنقعات الكبرى

شئ آخر لاحظته وسمعته .. كان مفاجأة أخرى ..
فرغم أن الناس هنا - فى منطقة المنابع الكبرى
- لا تروى أراضيها من مياه النيل .. ولا حتى من مياه البحيرة
الا نادرا ..

فالأرض هنا تعتمد على المطر .. أما مياه المنابع فهى تسقط
على الجبال وتسرع من خلال مجار صخرية ضيقة نحو
السودان ومصر .. فلا يمكن هنا حفر ترعة واحدة .. فالأراضى
معظمها صلبة وجبلية .. والمنطقة مرصعة بالغابات الكثيفة ..

وكان الله قد مهد الطبيعة لتدفع المياه .. معظم المياه
نحو الشمال .. الى السودان مصر !

وأمام هذه السيمفونية الالهية شعرت - كصحفي - كأنتي
أمام « بانوراما » صحفية .. ليس من السهل تسجيلها ..
المسافات شاسعة .. والتفاصيل كثيرة .. والوقت ضيق ..
ولم يكن أماننا سوى أن نبدأ بحماس أبناء النيل ..
وصبرهم نجوب المنطقة بطولها وعرضها وارتفاع جبالها .. بحثا
عن قصة قصيرة .. أو لقطة صغيرة .. وكان هذا يكلفنا
الكثير من الأميال والساعات ..

ولست أدري هل استطعنا حقا أن نلم بأطراف هذه
الملحمة .. وهل سأتمكن من تلخيص كل ما رأيت وسمعت من
خلال السطور القليلة القادمة ..

* تخلص من تخيلاتك السابقة

ان كل شيء هنا مختلف .. مختلف تماما عما قرأناه في
قصص الاكتشافات الكبرى .. أو كتب الجغرافيا ..
وحتى تأخذ معي - فكرة صحيحة فعليك أن تتخلى - كما
فعلت - عن تخيلاتك السابقة .. لتفسح المجال للحقائق التي
سمعتها هنا ..

فمساحة هذه البحيرة هائلة .. تقترب من مساحة أوغندا
كلها .. !! فهي تبلغ حوالى ٧٠ ألف كيلو مترا مربعا ومتوسط

عمقها خمسين مترا .. ويصل هذا العمق في كثير من مناطقها الى أكثر من سبعين مترا .. أما طول البحيرة فيبلغ ٥٠٧ كيلو مترا وعرضها ٤٤٢ كيلو مترا .. ولذلك فإن البواخر السياحية لا يمكنها أن تمضي بك في جولة سريعة لتمر على أشهر موانئها في أوغندا وتنزانيا وكينيا قبل أقل من أسبوع كامل ..

وإذا انتقلنا الى كمية المياه التي تنزل على البحيرة .. وكمية ما يخرج منها .. ويصل الى مصر في النهاية .. فالمسألة تحتاج الى حاسبة أخرى ..

وإذا بدأنا الرحلة من أولها فسنجد :

— ان مجموع ما ينزل على البحيرة من أمطار يصل الى ٩٨ مليار متر مكعب في السنة ..

— ومجموع ما يصل اليها من مياه المنابع والأنهار التي تصب فيها ١٦ مليار متر مكعب ..

— مجموع المصدرين ١١٤ مليار متر مكعب ..

— يتبخر منها ٩٣ مليار متر مكعب ..

— يبقى ما يخرج منها سنويا ٢١ مليار متر مكعب ..

والآن .. هل يصل الـ (٢١ مليار) الخارجة من فيكتوريا

الى السد العالي — أى الى مصر — ؟

الجواب : لا ..

وحتى نعرف السبب تعال بنا نمضى مع رحنة
ال (٢١ مليار) •

وهى رحلة طويلة تستغرق من ثلاثة الى ستة شهور كل
عام •• لكى تصل الى مصر ••

تمضى هذه الرحلة فى نهر ضيق سريع الجريان حتى تمر
ببحيرتى (كيوجا) و (البرت) وهنا تزداد كمية النهر من
٢١ مليارا الى ٢٤٥ مليارا ، وعندما تصل مياه النهر الى
مدينة نحولى على حدود السودان وأوغندا تصبح ٢٩ مليارا
عندما يضاف اليها ٥٤ مليار أخرى بلقائها عبر مياه نهر أسوا
القادمة من جبال الحبشة ••

يصبح لدينا الآن عند مدخل السودان - من الجنوب -
٢٩ مليار متر مكعب فهل تصل كلها الى مصر •• الجواب لا ••
لأن النيل هنا يتمزق فى مناهة منطقة المستنقعات الكبرى فى جنوب
السودان فلا تصل (ال ٢٩٥ مليار) لمصر الا بعد أن تكون
قد فقدت أكثر من نصفها •• وتبعا للحسابات الدقيقة لا يصل
لخزان السد العالى من بحيرة فيكتوريا الا ١٠ مليارات متر
مكعب سنويا ••

هنا نتذكر مياه الفيضان القادمة من اثيوبيا ويصبح الانسان
شغوفاً بمعرفة الكمية التى تصل منها الى مصر •• فنقول له
انها حوالى ٧٤ مليار متر مكعب سنويا ••

وبذلك تصبح الكمية التى يتم تخزينها أمام السد العالى ٨٤ مليار متر مكعب سنويا يتم توزيعها - بعد الفاقد وهو ١٠ مليارات بين مصر والسودان حسب الاتفاقية المعقودة بين البلدين ..

بعد هذه الرحلة الشاقة المليئة بالمعلومات والأرقام .. والتى وصلت بنا الى مشارف مصر والسد العالى .. نعود مرة أخرى الى هضبة البحيرات .. وبالذات عند بحيرة فيكتوريا .. لنجوس بك - فى رحلة عاجلة - عبر جزرها ومياهها

✳ عواصف فجائية عنيفة :

البحيرة مليئة بالجزر التى تكسوها غابات السافانا وجزرها مثل شواطئها جبلية شاهقة الارتفاع ، مهية المشهد تنفجر أرضها بالخضرة والأشجار الضخمة والحيوانات المفترسة وغير المفترسة ..

عندما مررنا على جزيرة (سمس) قال لنا المرافق الأوغندى ان هذه الجزيرة كانت مقفرة منذ أعوام بسبب مرض النوم الذى أودى بحياة أكثر سكانها ، الا انه قد صرح للناس أخيراً أن يعودوا اليها ، لأن الذباب لم يعد يحمل ميكروب هذا المرض اللعين ..

شواطئ البحيرة غاية فى الروعة والجمال ، فهى أحيانا تنبسط فى ساحل رملى ، يتحول الى بلاج غريب من المياه

« الحلوة » ، وأحيانا أخرى يعلو الى ارتفاعات جبلية شاهقة
تطل على مساحة هائلة من المياه ذات الزرقة الصافية ..

وبحيرة فيكتوريا كمعظم البحيرات الافريقية — معرضة
للعواصف الفجائية العنيفة ، وذلك بسبب وجود مساحة هائلة
من المياه محاطة بمساحة أكثر اتساعا من اليابسة مما ينتج عنه
حدوث (خلاخل هوائية) مفاجئة قوية ، تدفع بكميات هائلة
من الهواء ، وتغرس جحافلها الى سطح البحيرة فتوقظ أمواجه
النائمة وترفعها بشدة لتتلاطم — بغير انتظام — وتعرض الملاحه
فيها الى احوال غاية في العنف والخطورة .. وقد هاجمت سفينتنا
واحدة من العواصف شعرنا خلالها أننا غارقون لا محالة ..
ولكن القبطان سخر من خوفنا .. وقال انها مجرد « نموذج
مصغر » لعواصف البحيرة العاتية ومن أعرب المشاهد المثيرة
وسط البحيرة .. هو انفجار نوافير المياه الساخنة فجأة بين الحين
والآخر وسط البحيرة .. وبعد أن ترتفع المياه لمدة معينة ما تلبث
أن تقل وتختفي نهائيا .. وقد فاجأتنا .. احدى هذه النوافير ..
الساخنة .. وذكر لنا مرافقنا .. انها تحدث نتيجة للضغوط
المفاجئة .. فى قاع البحيرة .. المليء بالشقوق التى تتسرب
منها .. مياه البحيرة باستمرار ..

ورغم ان البحيرة تقع فى المنطقة الحارة ، فان مناخها بشكل
عام يعتبر ربيعا دائما ، والسبب فى ذلك انها تقع كطبقة كبير
على قمة هضبة جميلة جبلية ترتفع عن سطح البحر حوالى

٤٠٠٠ قدم .. ولذلك نجد أن الحد الأقصى للحرارة يبلغ متوسطه ٢٧ درجة .. أما الحد الأدنى فلا يقل عن ١٧ درجة .. ولكن الرطوبة الكثيفة .. تشعرك أنك تعيش دائما في المنطقة الحارة ..

فالجو اذن بشكل عام رائع ولا عيب فيه سوى أن درجة الحرارة تجرى على وتيرة واحدة ، وكذلك الأمطار التي تسقط معظم شهور السنة .. كما أن درجة الرطوبة عالية ولا تقل في متوسطها عن ٨٠٪ ..

وأكثر ما ينغص حياة المواطنين هناك مرض النوم الذي تنقله باللسع ذبابة « التسي تسي » الشهيرة وينشأ المرض من تكوين ميكروسكوبى يسمى (تريا نوزوم) يكمن فى دم المصابين ، وتحمله معها الذبابة عند اللسع ثم تنقله الى الاصحاء .. وهكذا ..

ورغم وفرة الخزيرات فى منطقة بحيرة فيكتوريا والتي تبدو واضحة لأى زائر متجول .. فقد لاحظت ان معظم السكان هناك يعانون من سوء التغذية ، فليست كل الأشجار تعطي الثمار والفاكهة .. خاصة ان استقلال الدول المحيطة بالبحيرة كينيا وأوغندا وتنزانيا جعلها تهتم بصحة المواطنين ، مما قلل من نسبة الوفيات وزاد من عدد السكان زيادة لم يقابلها توسع فى الرقعة الزراعية أو الانتاجية بالمنطقة .. فمعظمها مناطق غابات وعرة

لا تصلح للزراعة ومناطق شاي وبن محتكرة منذ زمن للهنود
والمهاجرين يصل لمئات السنين ! !

وقد كانت العصور الماضية كفيلة الى حد ما بالمحافظة
على التوازن بين سكان افريقيا و .. بين امكانيات البيئة وما كانت
تعانيه القارة من تفشى الامراض ونشوب الحروب الأهلية
والعالمية ، أما في هذا القرن الذي حرمت فيه تجارة الرقيق ،
وتوقفت الحروب الأهلية وغير الأهلية وكوفح المرض من
الحكومات الثلاث كفاحا مريرا .. فقد أصبح الطريق مفتوحا
على مصراعيه أمام الزيادة المطردة لعدد السكان .. وخاصة بين
قبائله البدائية الموجودة ، والتي مازالت تتجه نحو الاكثار من
الذرية ..

الناس والحياة عند منابع النيل

وبمناسبة الكلام عن القبائل البدائية .. فاعتقد انه
يهمنا - نحن الذين نعيش عند مصب النيل - أن نعرف شيئا
عن اخواننا الذين يعيشون عند المنبع .. وبشكل عام .. فهناك
فرق كبير بين حياتنا وحياتهم .. ولعل الشيء الوحيد الذي
تشابه فيه معهم ، هو اننا نشترك معهم في الشرب من مياه

النهر العظيم .. أما بعد ذلك .. فالاختلاف - نراه - تقريبا
في كل شيء ..

وكلامي هذا ينصب على سكان الغابات ..

أما سكان المدن - فهم كسكان المدن في كل مكان -
حياتهم لا تختلف كثيرا .. غير أن هناك ظاهرة لفتت نظري في
معظم المدن والبلدان المحيطة ببحيرة فيكتوريا .. هي انتشار
المهاجرين الهنود انتشارا ملحوظا .. وسيطرتهم التامة على
المرافق الاقتصادية ، ويكفي أن تعرف أنه لا يوجد دكان واحد
في بلدة كبيرة أو صغيرة لمواطن افريقي ..

ان ٩٩٪ من هذه المحلات أصحابها هنود ..

شيء آخر ..

معظم المواطنين الافريقيين - حتى الذين يعملون بالمدن -
يفضلون أن يسكنوا خارج المدن .. فالافريقي مازال يضيق
بشكل عام بالحياة المدنية .. ولا يطيق ما بدخلها من زحام
وصراع ..

وقد تعجبت أن أرى هذا العدد الكبير من المهاجرين
الهنود منتشرين عند منابع النيل رغم المساحة الشاسعة التي
تفصل بين شرق افريقيا والهند .. بينما لم أجد مهاجرا مصرياً
واحداً في هذا المكان !! رغم أننا نعيش في نفس القارة !!
ويربطنا بهذه البلاد شريط مائي يتيح لأي انسان أن يركب قارباً

صغيرا ويلقى بنفسه على صفحة النيل فيصل الى هناك بعد مجهود بسيط ♦♦

واذا تركنا حياة المدن - مثل كمبالا عاصمة أوغندا أو جينجا المدينة التي تقع عند منبع النيل وتوغلنا في الغابات لنرى أنواع البشر التي تعيش هناك فإن الكلام يصبح مختلفا تماما ♦♦

فمعظم الوطنيين الذين يقطنون شمال منابع النيل وجنوبه ينتسبون الى مجموعة القبائل النيلية الحامية مثل والازندي والقبائل النيلية التي تشمل على ثلاثة قبائل هي الشلوك والدنكا والنوير ♦♦

ويتميز رجال هذه القبائل بطول الأجسام ونحافتها وطول السيقان ، كما تتميز بالأرجل الرفيعة والأذرع والرؤوس الطويلة والبشرة السمراء ، والناس في هذه القبائل الثلاث لا يرتدون - بشكل عام - الملابس ويأنفون الاختلاط بالأجانب ويصعب التألف معهم ، وهم يملكون المشية وبقدر عدد الرؤوس التي يمتلكها الفرد تحدد مكاتته في القبيلة وخارجها ♦♦ فالماشية بالنسبة لهذه المجموعة من القبائل هي مهر العروس ، ودية القتلى ، والحديث الذي يطغى على كل حديث ، وهي محور أفكارهم ووحى أغانيهم وأناشيدهم وموضوع تراثيهم لدرجة أن الرجل بين هذه القبائل يعرف باسم بقرته أو ثوره ♦♦

ولاحظت أن قرى هذه القبائل ثابتة تصنع جدرانها من قش السافانا ، وأسقفها مخروطية الشكل لمقاومة الأمطار الاستوائية الغزيرة .. وقد تعودوا على حياة السهول والمستنقعات حتى انعدمت استعداداتهم للتأثر بالتيارات الحضارية الخارجية .. ولذلك نراهم متمسكين ببدائيتهم بحيث يتعذر على الاغراب فهم الكثير من آرائهم وعاداتهم وتقاليدهم ..

وتؤلف قبائل الشلوك وحدة واحدة يحكمها ملك ، وكان هذا فيما مضى يقتل عن طريق زوجاته بمجرد ان تضمحل صحته ايماناً منهم بأن صحة شباب القبيلة ورجالها متعلقة بصحة مليكها .. وأن الملك .. لأنه مقدس .. يجب ألا يموت فالملك يقتل رغماً عنه .. كما ذكرت بالتفصيل عند لقائي مع « ملك الشلوك » ..

أقصى من الموت

أما (الدنكا) فتتقسم الى عدد من القبائل المستقلة التي تتشابه مداركها وأهم شخص في القبيلة هو من يطلقون عليه لقب (صانع المطر) .. وهو الذي يخرج في أوقات الجفاف

الى قمم الجبال ويتمتع بتعاويذ معينة يوجهها لالهة السماء ..
استندارارا للمطر وذلك لأن معظم زراعاتهم البدائية ومراعيهم
تعتمد على المطر .. ولكن لاشك أن هذه التعاويذ هي من
من حظ بحيرة فيكتوريا لأن معظم هذا المطر يذهب اليها وكان
هذا الرجل - حسب عادات القبيلة - يدفن حيا اذا بلغ سن
الشيخوخة .. ولكن مرافقي ذكر لي ان هذه العادة بدأت تختفى
الآن بتأثير التيارات الحضارية .. واختلاط بعض أفراد الدنكا ..
بأهل المدن ..

أما النوير فهم من فروع الدنكا ، وينقسمون أيضا الى قبائل
مستقلة تعرف بشراستها وبأس شبانها .. وفتيات هذه القبيلة
ترفض الزواج من أى شاب ذهب الى إحدى المعارك .. وعاد
مهزوما .. ولذلك فشبان هذه القبيلة لا يهزم من أبدا ..
وشعارهم دائما : (النصر أو الموت) .. لأن عودتهم الى فتياتهم
مهزومين تعتبر في نظرهم أقصى من الموت ذاته .. فهي تعنى
الحياة الوحيدة البائسة وسط الأحرار على أطلال ذكريات
الهزيمة البائسة .. وعارها الأبدي ..

ويأتى بعد ذلك (الازندى) وهى قبائل لا يقتنى أفرادها
الماشية ولكنهم يزرعون الذرة والموز .. وهم يتميزون بالمرح
وحب الناس والألفة كما انهم من أمهر صيادى العالم ، وكانوا
فيما مضى من أكلة لحوم البشر .. وكان جيرانهم يتهكمون عليهم

ويطلقون عليهم قبائل (النيام نيام) اشارة الى صوت اللحم
البشرى عندما تلوكة أفواههم النهمة ..

وعندما توجهنا جنوبا حول بحيرة فيكتوريا .. حيث هضبة
البحيرات وجدنا أكبر مجموعة تتكلم بلهجات متقاربة هى مجموعة
شعوب (الباتو) الزنجية ، وهى خليط قديم من الزنوج
الوطنيين والغزاة الحاميين الذين وفدوا من الشمال الشرقى
والمجموعة الأولى يمثلها الأقزام الذين يستوطنون الغابات فى
جنوب البحيرة فى الكونغو كنشاسا وغرب أوغندا ، وعلمت أنه
توجد فى رواندا ثلاث قبائل متجاورة كلها تنتمى الى الباتو :

✱ الواتوزى :

وهى قبيلة ارسقراطية تتميز بطول الجسم وسمرة الوجه
والملامح الحامية الدقيقة ..

✱ الواهوتو :

وهم زنوج ذو أجسام متوسطة ويقومون بالأعمال العادية
من رعى وصيد ..

✱ والباتوا :

وهم أقزام صغار الجسم ويعتبرون فى المرتبة الأخيرة بين
القبائل الثلاث السابقة ..

واللغة السائدة بين معظم سكان هضبة البحيرات ، هى

اللغة السواحلية .. وهى خليط من اللغات العربية والانجليزية
والألمانية نظرا لوجود العرب فى هذه المنطقة منذ مئات السنين
ونظرا للوجود الاستعماري الانجليزى والألماني منذ نهاية
القرن الماضى ..

أما بالنسبة للعرب فقد وجدت آثار لهم هنا عند منابع
النيل .. حيث امتد وجودهم اليها بعد أن استوطنوا الساحل
الشرقى لافريقيا منذ أكثر من ألف عام .. ولذلك كان اسم
لغة القبائل فى هذه المنطقة مشتق من كلمة (ساحل) العربية
ويرمز هذا الى الجهة التى جاء منها العرب الى قلب افريقيا
كتجار حاملين للافريقيين معهم اللغة والثقافة العربية .. والدين
الاسلامى .. ومن الساحل انتقلوا الى منطقة هضبة البحيرات ..
حول بحيرة فيكتوريا .. حيث تمضى رحلتنا حولها ..

وبمناسبة الكلام عن الاسلام فهو منتشر بنسبة ٣٠٪ بين
سكان هضبة البحيرات وقد استطاعت البعثات التبشيرية أن
تجذب الى المسيحية ٦٠٪ من الافريقيين هناك وبقي ١٠٪
منهم يتبعون أديانهم البدائية التى تقوم معظمها على عبادة الأجداد
والأرواح والتوائم ..

والواقع ان فهم المسلمين هناك لتعاليم الاسلام الحقيقية

يصل الى درجة الصفر .. فالمسلم عند منطقة المنابع لا يفهم من اسلامه سوى انه ليس مسيحيا ولا وثنيا ويتميز عن الاثنين بانه يلبس (جلاية) بيضاء وطاقية أكثر بياضا .. وبعد ذلك فانه لا يستطيع أن يعرف سوى عبادة الأجداد والأرواح والتواتم ..

ورغم هذا فهم شغوفون جدا لمعرفة أى شئ عن دينهم وقد ذكر لى شيخ اسلام أوغندا .. انه يبعث دائما للقاهرة لترسل اليه بعض الكتب أو بعض رجال الأزهر .. والواقع ان بعض الدعاة يذهبون الى هناك فعلا ولكن بامكانيات مادية ولغوية ضعيفة .. وتتقف الامكانيات المادية عقبة أمام تحركهم الى الناس فى المناطق البعيدة فان حدث وتحركوا فان اللغة تتقف أمام تفاهمهم مع هؤلاء الناس .. بعكس المبشرين الذين يذهبون الى هذه المناطق بامكانيات مادية .. ولغوية أوسع ..

والواقع ان عدم وصول تعاليم الاسلام الى بلاد قريبة من بلاد الاسلام .. لم يكن هو الشئ الوحيد الذى آلمنى هناك .. فللاسلام رب يحميه .. ولكن هذه البلاد الشقيقة أوغندا وتنزانيا وكينيا - بلاد منابع النيل .. البلاد التى توجد بها وحدة الأرض والتاريخ والمصير .. هذه البلاد العزيزة ، أصبحت تحوى كل وجود كالوجود الانجليزى والهندى وحتى الوجود الاسرائيلى عدا وجودنا .. فهو وجود غاية فى الضلالة



سواء من الناحية السياسية أو الاقتصادية أو الثقافية .. رغم
 انها بلاد مفتوحة ولا تغلق أبوابها في وجوهنا ولست أدري الى
 متى سنظل على هذا الحال والى متى نولى هذه البلاد ظهورنا
 والى متى سنظل غير مدركين لأهمية تطوير علاقاتنا بهذه البلاد
 التى تبدأ من أراضيها رحلة أهم شريان يغذى حياتنا - رحلة
 النيل العظيم ..



المشهد رقم (١١)

رحلة هرب .. داخل أجمل رحلة قطار العالم

في هذا القطار يعيش الراكب في احتفال عام ، ويتحدث مع كل انسان ، وخارج النوافذ غابة واحدة متصلة .. يخرقها القطار في اتفاق داخل الاشجار الضخمة ..

وكل شيء في الرحلة باهر .. ومثير ، وخاصة عندما يكون الراكب صحنى ويكون في اعقابه بوليس ميناء بوانت نوار .. وقصة هرب الى العاصمة برازافيل .. للاحتفاء بالسفارة المصرية في عاصمة الكونغو ..

رحلة القطار التي أروى قصتها في الصفحات التالية هي

قصة رحلتي .. والغابة التي يخترقها تبلغ مساحتها حوالى مليون ميل مربع .. ولا يسكنها سوى مليون نسمة .. وهى تعتبر أكثف غابة فى العالم .. لأن أشجارها متلاصقة الى حد لا يسمح بأن تمر أشجارها غير الزواحف ..

وقد لجأ الفرنسيون أيام استعمارهم للمنطقة الى استخدام الديناميت اشق نفق للخط الحديدى بين أشجار هذه الغابة ، واستغرق مد الخط عشرة أعوام .. وجلبوا له العمال من كافة أنحاء افريقيا ..

وعندما تم انشاؤه كان عدد ضحايا المشروع قد زاد على عدد « الفلنكات » التى تحمل قضبان هذا الخط الحديدى المرعب .. خاصة وانه قد ثبت من احصاء أجراه الفرنسيون أنفسهم ان المشروع قد تكلف حياة افريقى واحد فى مقابل كل فلنكة .. وأوربى واحد فى مقابل كل ثلاث فلنكات ..

والمفارقة أن سبب ركوبى هذا القطار .. جاء صدفة .. وقد بدأت القصة عندما اقترب منى أحد رجال بوليس « بوانت نوار » فى الكونغو .. وقال لى فى أدب شديد :

— عندى أمر بأن تغادروا الأراضى الكونغولية فوراً .. ولبثت صامتة لحظات وأنا احاول أن أفهم لماذا يريد بلد

صديق (الكونفو برازافيل) ان يتخلص منى ومن زميلى المصور
محمد سعيد ..

وقلت للضابط الكنفولى وأنا احاول أن اخفى غضبى :

— ولكن تذاكر طائرنا لم تصل بعد ..

فاذا به يقول :

— ممنوع أن تركبوا الطائرة يجب أن تكون عودتكم

بالبحر ..

ولم أعد أفهم شيئاً ..

— لماذا البحر بالذات ؟

— هذه تعليمات السفارة ..

— سفارة من ؟

— سفارة مصر .. بناء على برقية من رئيسكم ..

— رئيسنا من ؟

— صلاح حافظ .. رئيس تحرير مجلتكم آخر ساعة ..

فذهلت .. واختلط الأمر فى ذهنى أكثر مما هو مختلط ..

نعم نحن كتبنا رسالة الى صلاح حافظ نخبره بأننا أنجزنا
عملنا فى الكونفو .. ونسأله هل تنتظر طائرة العودة ، أم
سنستقل الباخرة « ميس » لنجرى تحقيقات صحفية ملونة فى
بعض الموانئ ..

وقال لى رجل البوليس عظيم .. وها هو رئيس التحرير
يرد عليكم بريقة على عنوان السفارة يقول فيها :

« يجب أن تعودوا بالبحر » ..

ولكن ما علاقة هذا برجال الأمن الكونغولى ؟
ولماذا يجب أن يكون الرحيل فورا .. وبالأمر ؟
قلت للضابط :

— هل تسمح بأن تقول لى من أين تلقيت هذه الأوامر ؟
قال ببساطة :

— من العاصمة .. من مدير الأمن شخصيا ..
وباللاسلكى ..

فأحسست بحلقى يختنق ..

مدير الأمن .. وباللاسلكى .. وقوات من الشرطة تنتظر
فى الخارج .. والجو كله كأنما مسته كهرباء ..
كان واضحا أن هناك سوء تفاهم من نوع ما ..

وكان من العبث أن نضيع وقتنا — أنا وزميلي — فى
محاولات الاستنتاج لقد كان الأهم أن نقنع الضابط الكونغولى
باعطائنا الفرصة .. ونفهمه — أننا رغم بريقة رئيس التحرير —
أحرار فى طريقة عودتنا

ولكن يبدو انه لم تكن هناك أى فرصة للتفاهم ..

فكلمة « الرئيس » في الكونغرس لها قدسية خاصة ••
 قدسية شبه دينية •• ورئيسنا صلاح حافظ قال اننا يجب أن
 نعود فوراً ، وبالبسر وها هو البسر أماننا والضابط وراءنا ••
 ولا مفر ••

طلبنا منه أن تتصل برئيسنا فرفض ، توسلنا اليه أن تتصل
 بالسفارة ، فرفض وقال ان اليوم الأحد وكل شيء معطل ،
 وخط التليفون لا يعمل مع العاصمة ، واللاسلكي الوحيد في
 الميناء خاص بالجيش وهو معطل •

ولم يعد أماننا الا المقاومة فقلنا لهم ان من حقنا أن نرفض
 الرحيل لاننا نريد أن نذهب بالطائرة لعاصمة الكونغرس ومنها
 الى انجولا ، وليفضلوا بترحيلنا بالقوة ••

وارتبك الضابط بالطبع •• ووجد نفسه مضطرا الى اعادة
 الاتصال برؤسائه في العاصمة قبل أن يتولى استخدام القوة
 معنا ••

وكان هذا بالضبط ما نقصده ••

ولكن •• ما كان أشد خيبتنا ••

فقد بذل الضابط جهدا كبيرا ، واستدعى أكثر من خبير
 في اللاسلكي لاصلاح جهازه المعطل •• ليحيى الرد في النهاية
 من مدير الأمن :

— يجب أن يرحل الصحفيين فوراً •• ولو بالقوة تنفيذا
 لأوامر سفارتهم و •• رئيس تحريرهم

وهكذا لم يعد أماننا الا الاستسلام وفي ثوان كنا داخل
« بوكس » البوليس ، وتطوع أحد البلجيكيين بأن ينقلنا في
اللنش الخاص به الى السفينة .. وبعد لحظات كنا في هذا
اللنش يحرسنا عشرة من رجال البوليس ..

الصلح الماكر

وقبل أن نصل الى السفينة تعمدت « التظاهر » بالموافقة
مع الضابط ، واعتذرنا له أمام ركاب السفينة صافحاه بحرارة
وشكرناه .. حتى لا نبدو أمام قبطان السفينة مقبوضا علينا
وبعد اصرافه ادعينا لقبطان الباخرة أن هذا الضابط خدمنا
ووضع اللنش تحت خدمتنا لنلحق بالسفينة التي كادت
تسافر من غيرنا ..

وبذلك تلافينا فضيحة وصولنا الى السفينة محروسين
برجال البوليس ..

ولكن دما كان يغلى أنا وزميلي محمد سعيد ..
ولم يكن السبب هو هذا الأمر الغامض بترحيلنا ..
انما كان سببا أهم ..

كنا بعد أن بعثنا رسالتنا الى صلاح حافظ قد وجدنا
فرصة لدخول أنجولا التي كانت مازالت مستعمرة برتغالية ..
وكنا قد غيرنا خططنا لنحقق هذا النصر الصحفي .. وها نحن

نعود برغم أنوفنا قبل أن نحققه .. ونتيجة لسوء تفاهم لا نعرف بالضبط تفاصيله .. ودون أن تتبادل أية كلمة .. وجدنا نفسيينا - أنا ومحمد سعيد - نقول « لا » ..

وصممنا على أن تتم بأى ثمن رحلة أنجولا ..

وقدم إلينا الحظ خدمة كبيرة .. إذ تأخر موعد سفرنا الباخرة الى ظهر اليوم التالي .. وكان فى الميناء لنش يعود الى الشاطئ كل صباح يحمل المسافرين الذين يريدون أن يشتروا شيئاً من سوق الميناء .. فتسللنا الى هذا اللش ، ونزلنا منه الى الشاطئ وادعينا للقبطان أننا نسينا شيئاً على الشاطئ ومن هناك تسللنا .. هارين من الأعين التى رأتنا أمس فى حراسة البوليس ..

وفرضنا أنفسنا - بثقل ظل - لا حد له على سيارة صاحب اللش .. فهى السيارة الوحيدة التى اعتاد صاحبها الفرنسى أن يعبر بها الجمرى دون تفتيش .. وكنا طول الوقت نحدثه عن براعتنا الخارقة فى قيادة السيارات بسرعة .. ودفعه هذا دون وعى منه أن يسرع ..

وبعد أن تجاوزنا منطقة الخطر شكرناه .. ونزلنا من السيارة .. وأصبح علينا أن نصل أولاً وبأى ثمن الى سفارتنا فى العاصمة ..

وكانت الوسيلة الوحيدة أماننا قطارا يصل اليها بعد رحلة

تستغرق طوال الليل فقررنا دون تردد ان نركبه .. قطعنا
 التذاكر .. ثم اختفينا وراء أشجار المحطة .. حتى لا يعثر علينا
 أحد أفراد البوليس الذين اشتركوا في ترحيلنا حتى جاء القطار ..
 ووقف في لمحطة .. وكادت تقف معه دقائق قلوبنا .. خوفا .. أن
 يلاحقنا البوليس الذى اعتقد أنه قذف بنا الى الباخرة ..
 وعندما تحرك قفزنا الى قلب القطار .. حيث بدأت رحلتنا
 المشيرة .. داخل أدغال الغابة المثيرة ..
 وهكذا .. كان موعدنا مع هذا القطار .. موعدا مع
 القدر وجاءت رحلتنا — عبر غاباته — صدفة كما ذكرت ..

الضحك حتى الإغماء

القطار يمكن أن يقال انه من قطارات الدرجة الرابعة ،
 فهو فى الأصل قطار بضاعة ، وعربات الركاب تضاف الى آخره
 كما يضاف الذيل الى حيوان الغابة ..
 كان القطار يخترق قلب الغابة .. وكأنه ثعبان كبير يعرف
 طريقه داخل الأحراش .. معظم محطاته ومنحنياته مجرد أنفاق
 داخل الأشجار العملاقة .. ولكثافة الأشجار .. وجدنا القطار
 يغوص فى ظلام حالك .. وسط ليل مبكر .. لم تغرب
 شمسه بعد ..

أما داخل القطار .. فقد شعرنا وكأننا نسبح عبر أمواج متلاطمة وغريبة من البشر والمرح .. يكفي أن يركب الانسان هذا القطار ليشعر أن الشعب الكونغولي هو أكثر الشعوب مرحا على ظهر الأرض ..

شعب لا يحب « النكد » ..

في القطار لم نضبط واحدا متلبسا بظاهرة « التجهم » التي تجثم على وجوه شبابنا منذ سنوات .. الكل يتبادل مع الكل الأخبار السارة والضحكات الصاخبة من الأعماق .. وفي القطارات المصرية لا يتبادل الحديث الا الجالسون في مقاعد متقابلة .. أما في هذا القطار العربية كلها تتبادل الحديث والنكات ، والذى عنده نكته يلقيها على جميع الحاضرين .. فالنكات مشاع .. وكذلك الضحكات .. مع المعارف والغرباء ..

وقد وقف أحدهم يلقي نكتا متواصلة حتى اغمى على احدى الحاضرات .. وبعد ذلك اغمى عليه هو نفسه من فرط الارهاق .. !!

وفي جيوب معظمهم كانت تبدو بوضوح زجاجات النبيذ .. فالخمر في القطارات ، كالخمر في البلاد كلها ، رفيق دائم للناس هناك .. وهى احدى العادات .. السلبية .. التى اخذوها عن الفرنسيين

معنى الغابة

كان الجو داخل القطار أقرب الى جو رحلات الطلبة ..
أما خارج القطار فالذى يراه الانسان من النافذة ينقله الى عالم
آخر .. هائل فى روعته .. وفى فظاعته أيضا ..

عالم الغابة « البكر » ..

لا غابة السينما التى نراها فى أفلام طرزان .. والتى تتناثر
فيها الأشجار المتباعدة على أرض منبسطة تسمح بحركة
الكاميرا ..

وانما غابة أخرى .. حقيقية .. لا شبر فيها يشبه الشبر
الآخر .. وليس بين أشجارها مسافة تسمح لقدم انسان ..

غابة لم يستكشف الانسان فيها الا ذلك الطريق الذى
يخترقه القطار .. لأنه محال أن يتحرك داخلها الا الشعابين
العملاقة ..

وطريق القطار فى الغابة معظمه انفاق ، ولكن الأشجار شيئا
فشيئا تتباعد قرب نهايته وتظهر مسافات بين الأشجار .. حيث
تقفز القردة فى رشاقة ثم تلمح من خلال النافذة أسود ونمور ..
ثم أفيال .. تظهر وتختفى فى لمح البصر وبين وقت وآخر تنفرج
الغابة عن مدينة حديثة بها حمامات سباحة وفيها نساء ييضى

بالمأيوه .. نساء المستعمرين القدامى .. وقد تحول أزواجهن
الى « خبراء » فى الاستغلال خامات البلاد .. ونهب ثرواتها الى
عواصمهم ..

وينظر المسافر من النافذة فيشعر انه يقوم برحلة فى
الجنة ..

جبال قممها مغطاة بالثلوج .. وأنهار متوحشة فى عربدتها
وتدققها .. وجداول رقيقة وسهول متسعة تضيق فجأة لتتحول
الى تقق بين جذوع الأشجار المتلاحمة أمامنا كأعمدة من
صخور الجرانيت التى لا تنتهى ..

وعلى طول الطريق تلتقى العين بنماذج من الناس لا شبه
بينها الا فى اللون .. أقزام لا يزيد أطوالهم عن متر وربع ..
وعمالقة يتجاوزون المترين .. ورجال فى أيديهم سمك قبضوا
عليه فى ماء الجداول .. ونساء يحملن على الظهر أبناءهن ..
وكتل من الموز يبدو أنها بلا ثمن .. وفتيات ساحرات الوجه ..
رشقات الجسم .. كأنما صاغهن أعظم الفنانين موهبة وصيادون
يحملون حيوانات مشوية مجهولة وأجسامهم مصبوغة بالبرونز ..
ومهنتهم الصراع مع الاخطار .. ومعظم نشاطهم يتم فى الليل !!

وتختفى الشمس .. فيسود ظلام لا يعرفه ولن يعرفه
الا الذى يشهده بعينه .. ظلام الأخراس .. حيث تبدو
الإدغال .. واشجارها والأصوات الغامضة المنبعثة من بين

أشجارها .. وكأنها قطع مرعبة من ليل بهيم .. ثم يتسلل نور الفجر في النهاية بعد ساعات من الدقات الدائبة على القضبان .. وعلى أعصابنا ..

أجمل اعتذار

ووصلنا أخيراً الى العاصمة .. وبعد لحظات كنا في السفارة المصرية .. حيث فهمنا كل ما حدث ..

لقد وصلت برقية صلاح حافظ تنصح بأن نعود بالبحر وارادت السفارة أن تنقلها إلينا ، فلجأت الى مدير الأمن لأنه الوحيد الذى يملك جهازاً لاسلكياً في العاصمة .. ولكن المدير فهم أن المطلوب منه تنفيذ البرقية .. لا مجرد نقلها ..

وقال مصطفى حنفى - مستشار السفارة هناك .. والذى يشغل الآن منصب سفير مصر فى ألمانيا - وهو يتحدث تليفونيا الى المدير ..

- نحن طلبنا أن تبلغوا الصحفيين البرقية لا أن ترغموهم على تنفيذها ..

فقال المدير :

— آسف يبدو اننا اخطأنا وسنكتب اليهم فى القاهرة
لنعتذر ..

— فى القاهرة .. انهما هنا أمامى فى المكتب ..

—

— ألا تصدق

— غير معقول ، كيف حدث ذلك ؟

— لقد تمكنا من الهرب ووصلا الى هنا فى القطار القادم
من بوانت نوار ..

— هكذا ؟ اذن فقد تم الاعتذار لهما من الكونغو بأسرها
فالرحلة التى قاما بها هى أجمل رحلة قطار فى العالم كله ..

ونظر المستشار اليها فهزنا رأسينا موافقين ..

فقد كانت بالفعل أجمل رحلة يمكن أن يقوم بها أى انسان
عبر قطار .. يخترق أكبر غابات الدنيا ..

و .. بدأت مغامرتنا الثانية .. لدخول أنجولا ..

المشهد رقم (١٢)

مغامرة في أدغال أنجولا

زرت أنجولا عام ١٩٦٥ عندما كانت مجرد كاتبة تستعد في أحراش الكونغو برازافيل .. تعرفت على قادتها .. عندما كانوا مجرد نوار على حدود بلادهم .. دخلت معهم أنجولا كصحفي مرافق لأحدى فصائل التحرير .. وبهذا كنت أول صحفى فى العالم يدخل أنجولا أيام كانت مستعمرة برتغالية .. لا يعرف عنها العالم شيئا .. وهذه قصة المغامرة ..

لم يكن فى برنامج رحلتى الى افريقيا فى ذلك الوقت دخول أنجولا ..

فقد كان هذا المكان بالذات مغلقا على الصحفيين .. وكان الوصول اليه أصعب عندهم من الوصول الى القمر .. بل .. ولم يكن في هذا البرنامج - على الاطلاق - شيء من المغامرة أو أى تفكير فى الحصول على خبطة صحفية كبرى .. وكان كل ما طلبه منى صلاح حافظ رئيس التحرير هو القيام بدراسة صحفية « هادئة » عن البلاد التى سأمربها .. عن شعوبها .. والأفكار الجديدة التى تحتاحها والمشاكل التى تواجهها .. بعد حصولها على الاستقلال ..

وضايقنى الا يطلب منى رئيس التحرير سوى ذلك .. أو بمعنى (أدق) .. ضايقنى الا (ينتظر) منى رئيس التحرير أكثر من ذلك .. خاصة ان رحلتى كانت ستتجاوز خط الاستواء .. وسنقترب من أشد المناطق الافريقية - وقتها - التهابا .. حيث مازال البرتغاليون يحكمون قبضتهم حول أنجولا وموزمبيق ..

و .. قررت أن افاجئ رئيس التحرير بشيء مثير .. وعندما وصلت الى الكونغو برازافيل المتاخمة لحدود أنجولا كان رأيى قد استقر على دخول أنجولا خاصة عندما أخبرنى مصطفى حنفى مستشار سفارتنا وسفيرنا فى ألمانيا الآن باننا سنكون أول بعثة صحفية - فى العالم - تدخل الى أنجولا .. وتكتب تحقيقا مصورا عن ثورتها ..

وعرضت الفكرة على زملائي في الرحلة..ومن بعد مناقشات طويلة لم يوافق على مصاحبتي الى هناك سوى صحفي واحد .. هو الزميل المصور محمد سعيد .. لقد وافق - منذ اللحظة الأولى - على خطتي كاملة .. وبلا شرط .. بكل ما فيها من مصاعب واطار .. أما الزميل على المغربي صاحب « أكذبة » كتاب (مواقف) .. فقد نفى عن نفسه من البداية (تهمة) أى رغبة لخوض هذه المغامرة .. وعاد ليكتب كلمات كاذبة عن (سبق صحفي مزعوم)

الاستعداد للرحلة المثيرة

ما علينا ..
في الكونغو برازافيل .. كانت في انتظارنا مفاجأة غريبة مفاجأة قلبت خطتنا رأسا على عقب ..
كنا نعتقد أننا سندخل الى هناك كصحفيين ..
وإذا بالشرط الأول لدخولنا هو أن نكون فدائيين .. وأن يكون لدينا فكرة عن استخدام السلاح ..
وصدقة ..
لم يكن هذا الشرط يمثل عقبة بالنسبة لواحد منا ..

صدفة .. كان محمد سعيد مصورا عسكريا ..
 وصدفة - أيضا - كنت أحد الجامعيين الذين كان لهم
 شرف التطوع في معركة القناة عام ١٩٥١ ..
 ولم يوافق كمال زكى سفيرنا في الكونغو على رحلتنا
 المثيرة الا بعد ان استدعانا للسفارة .. واستجوبنا لمدة ساعة
 كاملة وتأكد تماما من قدرتنا على اتمامها ..
 وفي النهاية كلف مستشار السفارة بأن يصحبنا الى مقر
 قيادة الثوار للاتفاق على الخطوط النهائية للرحلة ..
 وبعد دقائق ..

كنا في مكتب قيادة الثورة في مدينة برازافيل .. وهناك
 التقينا (بمسيو لارا) أحد أعضاء المكتب السياسى فى
 (الحركة الشعبية لتحرير أنجولا) .. والمعروفة فى العالم
 باسم (الامبالا) ..

والرجل هو مدير الشؤون السياسية فى المكتب .. يتكلم
 بصوت هادىء جدا .. ألفاظه دقيقة محددة .. توحى بالصدق
 والثقة .. من ملامح وجهه الجادة يمكنك أن تقرأ سطورا
 هائلة من سنوات الكفاح .. وبالرغم من تلك الابتسامة العذبة
 التى لا تفارق شفقيه .. فإن نظراته العميقة تشع بومضات
 لا تنتهى من الحزن الدفين .. وتجعلك تستنتج فى سهولة ..

كم من الأحداث مرت عليه .. وكم فارق - وسط الميادين -
من رفاق السلاح ..

وأخيرا تكلم الرجل ..

وعرض علينا الخطة كاملة .. أو بمعنى أدق .. الجزء الذي
يجب أن نعرفه عن الخطة ..

قال :

- غدا .. في الساعة السادسة بالضبط عليكم بانتظاري
على محطة العاصمة برازا فيل .. قد اصحبكم بنفسى الى داخل
أنجولا .. واذا كنت مشغولا .. فسوف يأتى معكم شخص
آخر ..

ستركبون القطار لمدة ٧ ساعات .. ستزلون في محطة
(دوليزى) وهناك ستزوران في مكان ما خارج المدينة أحد
مراكز التربية العسكرية والسياسية لشباب (الامبالا) ..

بعد ذلك ستكون في انتظاركم سيارة جيب .. ستصحبكم
الى أحد مراكزنا العسكرية على الحدود .. وهناك ستخلعون
ملابسكم المدنية .. سيسلم كل واحد منكم زيا عسكريا
ومسدسا وبعدها ستمشون حوالى ٢٠ كيلو مترا داخل الغابات
وبعدها ستجدون أنفسكم داخل مواقع الثوار في أنجولا ..

وعندما انتهى كلام لارا حاولت أن أعرف منه اسم الرجل
الذى سرافقنا في حالة عدم مجيئه ..

أجاب في حذر واقتضاب :

— ستعرفه في الوقت المناسب .. وعلى كل سأمر عليك
بفندقك في الساعة السابعة مساء لاعطى لك (التعليمات)
الأخيرة ..

وفي الساعة السابعة بالضبط كانت سيارة صغيرة تقف أمام
الفندق وينزل منها مسيو لارا .. وجاء هذه المرة يحمل معه
حقيبة صغيرة ..

وفي صمت .. فتح الرجل الحقيبة .. وأعطاني خريطة
بخط سير الرحلة وأخبرني انه لن يرافقتي لانشغاله بالاعداد
لمؤتمر زعماء حركات تحرير المستعمرات البرتغالية .. وان الذي
سيرافقنا .. شخصية عسكرية هامة في الحركة .. ثم نصحني
بان احمل معي بعض اللعب المحفوظة .. اذا لم أكن أحب
(الموز) لانه سيكون الغذاء الوحيد الموجود في الطريق
الطويل ..

وقبل أن ينهض .. قال له محمد عويس مدير فرع شركة
النصر (بالكونغو برازافيل) : انتى أود أن اطمئن على رجوع
الصحفيين ..

ورد عليه في اختصار شديد .. أود أن تعرف اتنا وضعنا
كل الترتيبات لحمايتهم على طول الطريق .. ويكفى أن تعرف
ان الذي سيرافقهم (هو) مدير الشؤون العسكرية في المكتب
السياسي لحركة تحرير أنجولا ..

وبدأت المفامرة

وفي الساعة السادسة - بالضبط - من اليوم التالي ..
 كنا نقف على المحطة .. وبالرغم من أن ميعاد تحرك القطار
 كان في الساعة .. فلم يحضر مسيو لارا الا في الساعة الخامسة
 دقائق .. ومن بعيد شاهدت معه شخصا آخر بالملابس المدنية ..
 وعندما اقترب منا قدمه لنا في سرعة واقتضاب قائلا :

- مسيو كاريرا .. المسئول عن العمليات الحربية لحركة
 تحرير أنجولا .. وبعد دقائق كنت أجلس معه في القطار ..
 وعندما تحرك .. قال لنا في شيء من المرح : يستحسن أن تناموا
 في القطار .. فأمامكم طريق شاق طويل ..

قالها ولم يترك لنا فرصة للمناقشة .. ثم جلس على المقعد
 خلفنا و .. راح في نوم عميق !!

وكاريرا .. رفيقنا في الرحلة .. كان بمثابة وزير دفاع
 حركة الامبالا .. وليس قائد ثورة أنجولا كما نشر عنه
 أخيرا .. وقد أصبح وزير دفاع أنجولا فعلا .. في أول حكومة
 كونها « أوجستينو تيرا » بعد تحرير أنجولا ..

وهو شاب في حوالى السادسة والثلاثين .. نحيل
 الجسد .. ذو ارادة حديدية .. يعرف كل شبر من أراضى

أنجولا .. خاصة مبالكها السرية وسط الغابات .. وهو
أبيض اللون من أب برتغالي وأم أنجولية مثل معظم زعماء حركة
التحرير ..

وعندما استيقظ قبل نهاية رحلة القطار بقليل ..

سأله :

— ما سر هذه الظاهرة ؟

فقال :

— أى ظاهرة ...

ان معظم زعماء الحركة ليسوا أنجوليين سودا .. بل
معظمهم من السم المخلطين من آباء برتغاليين وأم أنجولية ..
وضحك كاريرا قائلا :

— ان هذه الظاهرة هى أكبر مقلب شربه البرتغاليون ..
فقد كان من سياستهم الاستعمارية .. الزواج العرفي
بالأنجوليات حتى يكثر عدد المخلطين البيض والسم الموالين
للبرتغال .. ولكن حدث ان معظم هؤلاء المخلطين أصبحوا أشد
أعداء البرتغال فى أنجولا ..

وقلت : كيف ؟

ورد كاريرا .. السبب ينحصر فى السياسة التعليمية ..
وهذه السياسة قسمت الشعب الأنجولى الى ثلاث طبقات ..

✳ الأنجوليون السود :

وهم محرومون تماما من التعليم ..

✳ المخلطون :

(أب برتغالي وأم أنجولية أو العكس) : يتعلمون حتى المرحلة الثانوية ..

✳ البيض :

(أو الحاصلون على الجنسية البرتغالية) يتعلمون حتى المرحلة الجامعية وما بعدها ..

وبالطبع كان المقصود بهذا تشجيع الجميع على التقرب من البرتغال سواء عن طريق الزواج أو عن طريق الحصول على الجنسية البرتغالية ..

وتنتيجة لهذه السياسة تعلم المخلطون حتى المرحلة الثانوية .. وفهموا شيئا عن مشكلتهم .. ومشكلة الاستعمار .. ومشكلة وجود البرتغال في أراضيهم .. قصة ذلك الأب البرتغالي الأبيض الخبيث .. الذى تزوج اما أنجولية زواجا صوريا ثم تركها تعاني الذل والفقر .. وتواجه الناس بابن غريب .. لا هو أسود ولا هو أبيض .. وبمستقبل أكثر غرابة ..

وسكت كاريرا القائد الثائر المخلط ، ثم قال :

— ومن هنا كانت ثورة (المخلطين) أكثر حثا والتهابا .. ووعيا .. ومن هنا أيضا كان معظم قواد حركة التحرير منهم ..

الكادر السياسى للحركة

وعندما انتهى كارييرا من كلامه كنا قد وصلنا الى
(دوليزى) ..

كان فى انتظارنا بعض رجال الثورة ..
وكانوا يحملون خبرا هاما ..

ان المنطقة التى سنزورها .. وقع عليها هجوم عنيف من
احدى الدوريات البرتغالية .. وقد اشترك الطرفان فى معركة
عنيفة قتل فيها ٦٥ شخصا .. كلهم من البرتغاليين ..

واعتذر لنا كارييرا .. فقد اضطر ان يتركنا فى أحد المواقع
السرية فى ضاحية بالمدينة وقال لنا ان عليه أن يذهب لابلأغ
الخبر للقيادة حتى تذيبه وكالات الأنباء (المحايدة) .. لأن
معظم وكالات الأنباء (الغربية) لا تذيب خبرا واحدا فى صالح
الثوار ..

وبعد ساعة واحدة عاد كارييرا بسيارة مدنية يقودها أحد
الثوار ومضى بنا الى مكان بعيد عن المدينة وهو عبارة عن قصر
مهجور وسط حديقة مليئة بالأشجار ..

وعندما طلبت من كارييرا أن يعطينى فكرة عن هذا

المكان .. قال لى فى اختصار (انه أحد مراكز التربية السياسية)
والعسكرية لثوار حركة امبالا ..

وفى هذا المكان تغيرت فكرتى تماما عن ثوار أنجولا ..
قبل زيارة هذا المكان .. كنت أعتقد انها مجرد حركة
عسكرية لا تقوم على أى أساس أيديولوجى أو ثقافى أو سياسى ..
وعندما خرجت .. كنت أحمل احتراماً كبيراً لكل فرد من
أفراد حركة الامبالا ..

وعلمت ان كل من ينضم لهذا المركز السياسى والعسكرى
لابد أن يكون - أولاً - أحد أعضاء حزب الامبالا ..

ومن أفراد هذا الحزب ينتقى بعض المتطوعين ..
وحتى هؤلاء .. لا يذهبون (مباشرة) الى ميدان القتال ..
بل يمرون (أولاً) على واحد من المراكز كالتى نزورها الآن ..
وفى هذا المركز تتكون العقلية السياسية .. والعقلية
العسكرية العلمية للشخص المحارب ..

دخلت القصر السرى .. فوجدته - رغم تواضعه - مقسماً
الى ثلاثة أقسام :

✽ القسم السياسى :

ويتلقى فيه الثوار - على أيدي مفكرى الحركة دراسة

واسعة عن السياسة الدولية .. وعن تاريخ الاستعمار .. وخاصة
الاستعمار البرتغالي .. ثم فكرة تفصيلية عن الاقتصاد
الأنجولى .. ومدى ما تحويه أراضيهم من ثروات هائلة ..
وكمية ما سرق - ويسرق سنويا - من هذه الثروات ..

✳ القسم العسكرى :

ويتعلم فيه الفدائي - على أيدي قادة الحركة أحدث
نظريات استخدام الأسلحة .. والمفرقات .. وحرب العصابات
الخاصة داخل الأدغال .. ثم يكمل هذه الدراسة بتدريبات
تطبيقية في الأدغال المجاورة ..

✳ القسم الطبى :

ويتلقى فيه المحارب - على أيدي بعض الأطباء برنامجا
محددا في طب الميادين .. والاسعافات العسكرية .. وإلى جانب
ذلك تقوم هذه المراكز بإسعاف الجرحى القادمين من المواقع
العسكرية في حالة وقوع هجوم شامل على أحداها ..

ومن خلال مناقشتى مع مدير هذا المركز علمت أن مهمة
هذه المراكز (هى) الارتفاع (بالدافع الثورى) لدى المحارب
الأنجولى .. وتقل هذه الدوافع من مجرد مستوى الغضب
الشخصى .. أو الحقد على الاستعمار .. أو الرغبة فى الانتقام
من الحوادث الفردية التى وقعت عليهم .. الى المستوى الفكرى
والسياسى لحركة « الامبالا » ذاتها ..

وثانياً - توحيد هذه الدوافع الشخصية وربطها بهدف كبير لا يقف عند مجرد القتل والحرب .. ولكن يرتفع الى مرتبة ضرورة الحصول على الحرية لأنجولا وتغييرها من البلاد المستعمرة ..

ثالثاً - اعداد القادة الذين يمكن الاعتماد عليهم بعد الحصول على الاستقلال .. حتى لا يحدث أى فراغ سياسى بعد خروج البرتغاليين .. خاصة ان بعض هذه المراكز ترسل لها مبعوثين للخارج من الآن .. يقومون - الى جانب الدعاية للثورة - بالتخصص فى دراسة فروع العلوم السياسية أو الاقتصادية الهامة ..

ومرة أخرى خرجت من هذا القصر السرى وأنا أشعر ان الكادر السياسى لحركة امبالا قد تم تنظيمه ووضع خطوطه الرئيسية بدقة تثير الاعجاب ..

الى انجولا

بعد أن أدى الجميع التحية العسكرية لمرافقنا .. كمدير للشئون العسكرية للحركة .. ركبنا السيارة وانطلقت بنا وسط طرق مليئة بالبرك والمستنقعات حتى وصلنا بعد ٤ ساعات من

السير المؤدى الى موقع عسكري صغير على حدود أنجولا ..
وفي هذا الموقع استبدلنا بملابسنا المدينة أخرى عسكرية ..
فاستلم كل منا جاكيت وبنطلون كاكي ومسدسا بخزائنين
و .. الباريه الخاص بشوار حركة امبالا ..

و .. انطلقت فرقتنا الصغيرة لأول مرة داخل أنجولا ..
في المقدمة كاريرا .. ثم أنا .. فزيملى المصور .. و ..
(لابندا) أحد الثوار الذى كان يحمى مؤخرتنا ويحمل مدفعا
سريع الطلقات ..

وقبل أن نخطو خطوة واحدة داخل الحدود تكلم معنا
كاريرا .. بلهجة عسكرية صارمة :

(بعد لحظات) سنكون داخل أنجولا .. سنمضى وسط
أدغال محاطة بالدوريات البرتغالية .. سنسير على أقدامنا
٢٠ كيلو مترا .. سنقطع المسافة فى حوالى ٧ ساعات .. الكلام
وحتى الهمس ممنوع .. قد تضطر للانبطاح فجأة فى الطريق ..
إذا التقينا بطائرة استطلاع برتغالية .. أو كتيبة برتغالية ..
ومضى أمامنا الرجل ..

وسرنا خلفه صامتين .. لا نسمع سوى دقات قلوبنا ..
وبدأنا ندخل فى طرق غاية فى الوعورة ..

وكانت الشمس قد بدأت تميل الى المغرب ..

وبعد قليل كنا نسير في ظلام دامس .. وسط أحراش
أنجولا ..

كيسوندى .. كيسوندى

في بداية الأمر كنا نسير وراءه في منتهى النشاط ..
وبعد أن قطعنا خمسة كيلو مترات .. بدأنا نلهث .. وبدأ
العرق يتصبب من كل مكان في أجسادنا .. اضطررنا أكثر من
مرة أن نبطح على الأرض لتفادى إحدى الدوريات البرتغالية
واضطرت وجوهنا - أكثر من مرة - أن تلامس الأرض ..
وبعد قليل أصبح وجهي أكثر سوادا من وجه زميلنا
الانجولى (لابندا) الذى يحمى مؤخرتنا ..
كل هذا استطعنا تحمله ..

حتى انحرف بنا كاريرا فجأة الى إحدى الغابات ..
كان الظلام داخل الغابة شاملا .. والجو مشبع بالرطوبة
والحرارة الخانقة .. والأرض من تحتنا مبللة بمياه الأمطار ..
وليست مستوية فهي ترتفع وتنخفض فجأة .. وكانت النتيجة
الطبيعية هي الانزلاق عدة مرات الى منابيع صغيرة للأنهار
ولسوء الحظ كان الطريق ضيقا جدا .. فهو طريق سرى خاص

بالثوار .. وكان علينا ان نبعد أغصان الأشجار الكثيفة التي
تعترض وجوهنا .. وان نمسك بها في الوقت نفسه لتحميننا
من الوقوع في هاوية سحيقة كنا نراها على ضوء القمر ..
وكانت تنتهي بمنبع مائى يعربد وسطه تيار جارف من المياه
المنحدرة من الجبال المحيطة ..

وكل ذلك - أيضا - استطعنا تحمله ..

ولكن حدث فجأة .. ان وجدت جسمى - كله - قد
ارتفعت درجة حرارته .. وعندما تحسست جسدى في الظلام
وجدت عشرات من الحشرات تسرع الى داخلى و .. (هات
يا قرص) .. بلا شفقة ولا رحمة ..

ونسيت تعليمات كاريرا بعدم الكلام وصرخت فيه استفسر
منه عما حدث لى .. ففوجئت به يقول لى ان نفس هذه
الحشرات تملأ جسده الآن .. وان جسده يكاد يتمزق من
اللسعات المسعورة ..

وصرخ محمد سعيد من ورائى يطلب النجدة ..

وعندما سألت كاريرا عن هذه الحشرات ..

وهل هى (ناموس) افريقى خاص يعيش في الأدغال
ولا نراه في بلادنا ..

قال لى : لا .. انها حشرة توجد بالمسليين ولا يتذكر
اسمها الآن ..

وأَمْضِينَا سَاعَةً فِي عَذَابٍ قَاتِلٍ .. حَتَّى التَّقِينَا بِمَنْبَعِ مَاءٍ ..
فَأَمَرْنَا كَارِيرًا بِأَنْ نَقْذِفَ أَنْفُسَنَا فِيهِ دُونَ أَنْ نَخْلُعَ مَلَابِسَنَا حَتَّى
تَمُوتَ الْحَشَرَاتُ عَلَى أَجْسَامِنَا ..

و .. تَمَرَّغْنَا فِي الْمَنْبَعِ الْمَائِيِّ .. وَمَاتَتِ الْحَشَرَاتُ عَلَى
أَجْسَادِنَا وَلَكِنهَا ظَلَّتْ قَابِضَةً بِأَنْيَابِهَا .. حَتَّى وَصَلْنَا مَتَهَالِكِينَ
إِلَى الْمَوْقِعِ - بَعْدَ ٥ سَاعَاتٍ - مُتَوَاصِلَةً .. وَهَنَّا فِي الْمَعْسَكِ
خَلَعْنَا مَلَابِسَنَا تَمَامًا .. وَأَخَذَ أَحَدُ الْأَطِبَّاءِ هُنَاكَ يَخْرُجُ مِنْ
أَجْسَادِنَا مِثْلَ مِثَالٍ مِنْهَا (بِمَلَقَطٍ) خَاصٍّ .. وَلَمْ تَكُنْ تَخْرُجُ
بِيسْهُولَةٍ .. وَلَكِنهَا كَانَتْ تَنْزَعُ نَزْعًا .. وَ .. اِمْتَلَأَتْ أَجْسَادُنَا
بِالدَّمَاءِ ..

وَلِهَذَا .. فَقَدْ أَمَرْنَا الدَّكْتُورَ أَنْ نَسْرِعَ جَمِيعًا - كَمَا وَلَدْتُنَا
أُمَهَاتُنَا - إِلَى مَنْبَعِ مَائِيٍّ كَبِيرٍ .. وَإِنْ نَخْلُصَ أَجْسَامَنَا مِنَ الطِّينِ
وَالْعَرَقِ وَالدَّمِ وَأَنْ نَمَكِّثَ هُنَاكَ سَاعَةً كَامِلَةً ..

وَهُنَاكَ .. أَمْضَيْتُ أَحْلَى سَاعَاتِ عَمْرِي .. شَعُرْتُ وَكَأَنَّنِي
اتَّقَلْتُ فَجْأَةً مِنَ النَّارِ إِلَى الْجَنَّةِ .. نَارِ الطَّرِيقِ الطَّوِيلِ ..
وَالْجَسَدِ الْمَحْمُومِ .. ثُمَّ كَانَ ذَلِكَ الْإِحْسَاسُ الْغَرِيبَ بِالتَّخْلُصِ
مِنْ كُلِّ شَيْءٍ .. حَتَّى الْمَلَابِسِ .. فِي حُضْنِ هَذَا الْمَنْبَعِ الْمَائِيِّ
وَأَحْسَسْتُ وَكَأَنَّنِي فِي حِلْمٍ لَذِيذٍ بِلَا قَيُودٍ .. وَلَا هُمُومٍ ..
وَأَمْضِينَا فِي الْمَنْبَعِ أَكْثَرَ مِنْ سَاعَةٍ .. اسْتَطَعْنَا بَعْدَهَا أَنْ نَسْتَرِدَّ
بَعْضَ وَعِينَا ..

وعندما عدت للمعسكر كان أول سؤال وجهته للطبيب :

— ما هي هذه الحشرة يا دكتور ؟

— انها (الكيصوندى) وهي حشرة خاصة من فصيلة

النمل .. تمشى بسرعة هائلة .. فى طواير لا يقل عدد الواحد منها عن ثلاثة ملايين .. ويبدو ان أقدامكم داست فى الظلام على طابور منها ..

وسكت قليلا ثم استطرد :

— وهذه الطواير من (الكيصوندى) هي الشيء الوحيد

فى الغابة الذى يقتل الفيلة .. ويطلق عليها الثوار لفظ (فيتكونج) لسرعتها وخطورتها ..

ومرة أخرى .. كاد أن يعنى علينا ..

ولكننا ارتمينا على سرير من القش .. واسترخينا فى منزل

مبنى من فروع الشجر قريب الشبه بيوت طرزان حتى الصباح على تلك الأصوات الساحرة الغامضة التى تصدر من

أعماق الغابة .. ثم نمنا بعمق ..

فقد وصلنا أخيرا الى هدفنا ..

وأصبحنا عند خط الدفاع الأول لثوار أنجولا ..

بل خط المواجهة ..

وفد كان هذا وحده كافيا لأن تنسى كل ما لاقيناه من
أهوال .. وان تنسى كل أحزانتنا .. وألامنا .. ومخاوفنا ..
فقد عدت الى مصر بعدها .. لأكتب في ديسمبر عام ١٩٦٥
أول تحقيق صحفي من داخل (مستعمرة) أنجولا .. عندما
كان استقلالها مجرد حلم يراود خيال رجال (الامبالا) ..
أو لجبهة لشعبية لتحرير أنجولا .. والتحقيق مسجل عام ٦٥
في « آخر ساعة » .. وموضوعه خارج .. عن موضوع هذا
الكتاب ..



المشهد رقم (١٣)

مغامرة في أحراش موزمبيق

بعد مغامرة أنجولا ..

دخلت موزمبيق عام ١٩٦٨ .. عندما كانت مجرد مستعمرة
برتغالية محرم دخولها على الصحف العربية والافريقية ..
أصبحت أول صحفى يدخل هذه المنطقة ولتحقيق ذلك قمت
بمغامرة صحفية مثيرة مع زميلى المصور .. وحمل كل منا اسما
مستعارا واخترقنا حدود موزمبيق وقطعنا على الأقدام عشرات
الأميال فى قلب افريقيا .. لتقديم أول تحقيق مصور من داخل
موزمبيق ، لتسجيل بطولة ثورة من اعتى ثورات العصر طولا
وصبرا وصمودا ..

ولم يكن الغرض من هذه المحاولة .. هو مجرد الرغبة
فى القيام بمغامرة صحفية رغم كل ما لاقيناه من اخطار ، ولم

ينكن الهدف كذلك مجرد الميل الى كتابة موضوع مثير .. رغم
ان كل ما فيها كان مثيرا ..

كل ما هنالك .. اننا عندما وصلنا الى تنزانيا واقترينا من
أشد المناطق الافريقية التهاجا .. لفت نظرنا ذلك العدد الكبير
الذى يعيش فى عاصمتها من الثوار .. وعلى رأسهم ثوار
موزمبيق ..

وعندما التقينا بزعماء هذه الثورة ، ذكرتنا آحاديثهم
بما يجرى فى منطقة الشرق الأوسط فى ذلك الوقت من
أحداث .. انهم يقودون حركة عنيدة لتحرير أرضهم من عدو
عنيد .. ورغم ان البرتغال بلد صغير .. فانه يحتل مساحة
هائلة من افريقيا وتتحدى شعوب القارة كلها ..

تماما .. كما تفعل اسرائيل مع العرب ..
وكما ان اسرائيل لا تقف وحدها .. فكذلك كانت
البرتغال .. وراء كل منها قوى الاستعمار العالمية ..
وعلى رأسها أمريكا ..

ولم تكن المسألة سهلة ..

كان علينا أن نخترق حدود موزمبيق ، أن نحصل على
اذن خاص من رئيس جمهورية تنزانيا .. ولكن اصرارنا على
الدخول الى جانب المساعدة الايجابية التى قدمها لنا (موجوبى)

السكرتير التنفيذي للجنة تحرير افريقيا ومساعدة الدكتور سامى ممثل مصر فى اللجنة فى ذلك الوقت .. ذلت أمامنا كل العقبات .

وبعد حوالى أسبوع من الانتظار القاتل .. حصلنا على الاذن الخاص من نيريرى الرئيس التنزانى ، وبدأت اجراءات لسفر السريعة والغريبة معا ..

أول هذه الاجراءات .. تغيير اسمائنا الى أسماء أخرى . أصبح اسمى (م . ساندو) ، واسم المصور محمد سعيد (س . جونسون) .. وبهذه الاسماء المستعارة الجديدة ، قام بعض رجال الثورة بقطع التذاكر لنا على احدى طائرات الخطوط المحلية التنزانية .. لنصل الى مدينة « ميتواترا » ، القرية من حدود موزمبيق ..

لم أعر حكاية تغيير الاسماء أهمية أول الأمر ..

ولكن بعد أن أقلعت الطائرة بنا .. سألت مرافقنا فى الرحلة عن سبب حرصهم على تغيير الاسماء .. مع ان مهمتنا ليست سوى مهمة صحفية فأفهمنى ان للبرتغال جواسيس فى تنزانيا .. وانهم فى احدى المرات خطفوا شخصية هامة كانت على وشك دخول موزمبيق مثلنا .. وان الطائرة يقودها أوربيون .. وانها تسير على ضوء الاشارات التى ترسل اليها من أبراج

المراقبة في روديسيا الجنوبية أوريو ايضا .. وهى المستعمرة
التي أصبح اسمها (زمبابوى) بعد الاستقلال ..

بعد هذا الكلام وجدت مبررا لهذا الحرص .. وودت في
أعماقي لو زاد هذا الحرص بعدم ركوب هذه الطائرة
أصلا .. لأن معنى كلامه ان قائد الطائرة يمكنه أن يغير طريقه
من حدود موزمبيق .. الى حيث يسلمنا للبرتغاليين ..

ومرت فترة من الصمت الثقيل .. بعد سماعى هذه الملاحظة
المزعجة .. وبينما كانت عيوننا مفتوحة فى قلق ، راح «مارسليانو»
رفيقنا فى نوم عميق .. ولم توقظه سوى حركة احتكاك عجلات
الطائرة بأرض مطار مدينة (ميتواترا) الميناء الهادئ الجميل
وحسب الخطة المرسومة لحماية رحلتنا .. وجدنا فى انتظارنا عربية
جيب أخذتنا مباشرة من المطار بعيدا عن قلب المدينة الى مكان
يعيد فى ضاحتها .. ووجدنا أنفسنا أمام فندق مطل على المحيط
الهندي .. فندق مجهول المكان والاسم ..

ونزلنا فى حجرتين منفصلتين بنفس الاسماء المستعارة ..
فى كلمات قصيرة ومحددة قال لنا مارسليانو بعد أن نظر فى
ساعته التى كانت تشير الى السادسة مساء :

— سنستريح هنا ساعتين • وسننام فى الثامنة بالضبط
وسنستيقظ فى الساعة الثانية صباحا .. ستحملنا عربية
(لاندروفر) .. لتمضى بنا حوالى ٢٠٠ ميل الى مكان ما ..

قرب حدود موزمبيق •• ومن هناك ستبدأ رحلتنا على الأقدام
داخل أحراش موزمبيق •• بعد عبور نهر على تلك الحدود

الطريق الطويل

وصلنا و (اللاندروفر) الى قرب حدود موزمبيق بعد
رحلة صعبة في طرق غير معبدة •• وبدأت رحلتنا على الأقدام
من احدى القرى التنزانية ••

الطريق طويل •• كطول عمر الثورة الموزمبيقية •• مخفور
بأقدام الثوار •• ضيق •• لا يتسع الا لمسيرة شخص واحد ••
ملئ بالأحجار والمطبات •• مغطى على الجانبين بالحشائش
الطويلة •• والأشجار الاستوائية الضخمة •• مشينا ميلا وميلين
بنشاط •• وبعد هذا النشاط بدأ النشاط يتآكل ويذوب تحت
وطأة حرارة الشمس وقسوة المرتفعات والمنخفضات •• والطريق
يلتوى أمامنا ويدلف وسط أذخال قاسية لا علاقة لها بكل
مشاهد الغابة السينمائية •• فغابة السينما حاملة جميلة مسطحة
الأرض أما غابة الواقع •• أو بمعنى أدق الغابة التي اخترقناها ••
فهى قاسية •• خائقة •• مليئة بالحشرات وطواير النمل
الخطيرة •• والأرض التي نمشى عليها تختلف عن تلك الأرض

المسطحة التى كنا نشاهد طرزان يركض عليها وراء الحيوانات
المفترسة ..

فهى هنا تنخفض وترتفع تحت الأقدام لتدمى الأصابع ..
وترهق الأجساد .. هذا علاوة على الأصوات الغامضة التى
يتردد صداها من حين لآخر من أنحاء مجهولة وتثير فى الاوصال
الرهبة والفرع .. صوت الأدغال الغامض .. لا تستطيع أن
تميز فيه صراخ حيوان مهزوم .. أو صيحة طير منتصر ..

الطريق لا يريد أن ينتهى ..

والدهشة تسيطر علينا - أنا وزميلي المصور - من السهولة
التي يمشى بها مارسليانو ورفاقه .. فبينما كان التعب القاتل
يتسلل الى كل خلية من أجسادنا .. كان رفيقنا وصحبه يمشون
وكأنهم فى نزهة خلوية على كورنيش النيل .. وبعد ساعتين من
الارهاق الشديد .. وصلنا الى نهر (روثوما) .. الخط الفاصل
بين تنزانيا وموزمبيق .. وفى مكان ما .. كان هناك قاربان فى
انتظارنا .. القاربان محفوران داخل جذوع الشجر ..

وقرر مارسليانو ان يقسم فريق الرحلة الى مجموعتين كل
منهما يأخذ قاربا الى شاطئ موزمبيق .. وركبت أنا فى واحد
منهما .. وتبعنا سعيد فى القارب الآخر ..

كان مجرى النهر يندفع فى وحشية ككل أنهار المنطقة

الاستوائية القريبة من المنابع .. والقارب الرفيع يندفع — أيضا —
في سهولة •

اتتهت رحلة العبور في عشرين دقيقة .. كانت سعادتنا
وقلقنا عظيمين وأقدامنا المرهقة تلامس أرض موزمبيق .. احدى
مناطق المقاومة الملتهبة في العالم •

وفجأة قال صوت مارسلينو وهو يتكلم في شيء من الحزم:
— علينا الآن أن نسرع من هذه المنطقة .. لا توجد هنا
أشجار يجب علينا أن ندخل منطقة الأدغال مرة أخرى في سرعة ..
هنا يمكن لطائرات العدو أن تحصدنا في دقيقة واحدة ..
بعد هذه الكلمات ..

شعرت ان جميع المتاعب التي حلت بنا تبخرت ..
وأحسست بقوة خفية تتقمص الأقدام .. كل الأقدام .. وفي أقل
من ساعة واحدة كنا نمضي مرة أخرى داخل الطرق السرية في
أدغال موزمبيق الكثيفة ..

وبدأ الظلام يلف كل شيء حولنا .. رغم اننا في منتصف
النهار .. لم أعد أرى سوى أقدام مارسلينو التي تتحرك دائما
في خفة مذهلة .. ولم أعد اسمع سوى أصوات الأتقاس
اللاهثة .. أما الخطر فلم يعد أحد يشعر به رغم انه أصبح
يحيط بنا من كل جانب .. من فوقنا ومن تحتنا ..

وكان أبسط هذه الأخطار جميعا .. هو احتمال انقضاض
أحد الثعابين الكبرى في أية لحظة علينا .. ولهذا كان مرسلينو
ينصحنا دائما بالاسراع .. وأشار الى بعض الأغصان البعيدة
وقال لي : هذه واحدة .. من الأفاعى

وباختصار كان طولها حوالى خمسة أمتار ، وقطر جسمها
حوالى نصف متر ..

و .. مضى بنا الطريق الطويل .. يرتفع وينخفض ..
يلهث بنا ونلهث منه .. حتى سمعنا من بعيد أصواتا لم تبين
نوعها للوهلة الأولى .. وعندما اقتربنا منها .. بدأت تتضح ..
رجال ينشدون بعض الأناشيد ..

كيف يحدث هذا في موقع سرى ..

ورد مارسليينو : انه معسكر (ليودى) أحد قواعدنا
العسكرية السرية .. صحيح ان هذا المكان هو أحد المواقع
السرية للشوار .. ولكنه يقع داخل إحدى المواقع المحررة ..
ورغم اننى كنت في غاية الارهاق والعطش .. فقد بدا هذا
الكلام غريبا .. كيف يكون موقعا سرىا .. ثم تستمع فيه الى
أناشيد .. وما هى حكاية المناطق المحررة من موزمبيق ..
وعشرات الأسئلة لجها تتراقص على طرف لسانى كل من مارسليينو
و (البرتو ميكاكوييتو) قائد معسكر (لوبودى) الذى وصلنا

اليه .. قال الجميع استرح أولا .. نشرب ونأكل وملتقط
الأنفاس .. ثم قد يتسع الوقت - ليلا لكى نشرح لك
كل شيء ..

اختيار المقاتل

بعد فترة من الراحة .. بدأت أفهم كل شيء ..
ان المعسكر الذى وصلناه منذ قليل .. هو أحد المعسكرات
السرية داخل احدى المقاطعات الثلاث المحررة فى موزمبيق ،
وموزمبيق تنقسم الى سبع مقاطعات هى : مانيكيسوفالا ،
وزامبيزيا ، وموزمبيق ، وجازا ، ونيتى ، ونياسا ، وكبود لجادو،
وقد تم حتى الآن (١) تحرير :

✱ تيشى

✱ ونياسا

✱ وكبود لجادو

ونحن الآن فى مقاطعة (كبود لجادو) شمال موزمبيق وهى
المناطق الملاصقة لتزانيا ..

كانت مساحة المناطق المحررة من موزمبيق عند وصولنا

(١) أغسطس عام ١٩٦٨ م .

عام ١٩٦٨ خمس مساحة موزمبيق كلها .. وقد وضع الثوار خططهم الاستراتيجية على أساس القيام أولا بتحرير جميع المناطق الريفية والقرى .. وفي الريف يتم تقوية هذه المناطق وتدعيمها .. وخلق الكوادر السياسية والعسكرية والفنية بعد ذلك يمكن الانقضاض على المدن وتحريرها ..

ولكن كيف كان يتم خلق هذه الكوادر ..

وكيف كان يتم اعداد المقاتل .. في هذه الحقبة الذهبية من عمر افريقيا ..

الحقيقة ان المسألة لم تكن تمضى عبثا ، ولكنهم كانوا يتبعون الأسلوب العلمى فى خلق المحارب ، ولولا هذا لتحولوا الى مجموعة من الغاضبين بدلا من أن يصبحوا مجموعة من الثوار .. والفرق بين الرجل الغاضب والرجل الثورى فرق كبير ..

الرجل الغاضب يمكن أن ينضم لك لأن العدو استولى على منزله فقط .. أما الرجل الثورى فانه يحارب معك لأن العدو استولى على بلده ..

ومن هنا أصبحت مهمتهم هناك .. تحويل الدوافع الشخصية للمحارب - ان وجدت - الى دوافع موضوعية ثورية ..

هكذا قال لى مارسيلوس ردا على سؤالى .. ومن هذه
الاجابة الناضجة اكتشفت أن مارسيلينو الذى كنت اعتقد انه
مجرد محارب مكلف من قبل الحركة بمرافقتنا الى موزمبيق ..
انه واحد من أهم قادتها .. وانه مسئول عن التوجه السياسى
لكل أفرادها .. وانه عضو اللجنة المركزية بها ..
ولم تكن هذه المفاجأة الوحيدة التى اكتشفتها فى الأشخاص
الذين يرافقونا ..

فهناك أيضا « ماسلاما » .. كان يمضى فى بداية طابورنا
وكنت اعتقد انه مجرد مرشد للرحلة ..

ولكننى عندما وصلت للمعسكر السرى - وجدت قائد
المعسكر (البرتو) ينتفض أمامه فى تحية عسكرية صارمة ..
ويقف أمامه وقفة استعداد لتلقى أى اشارة أو أية أوامر ..
ولما سألت عنه قيل لى انه أحد القواد العسكريين وانه
يرأس ثلاثة معسكرات سرية فى مقاطعة كابود لجادو ..

ورغم هذا فلم يكن هذا القائد الصغير الجسم يتورع عن
حمل شنطة زميلى المصور محمد سعيد المليئة بالأفلام ليخفف عنا
متاعب الطريق ..

وهكذا كانوا جميعا ..

ولكن كيف يجمعون المقاتلين .. وكيف يخلقون منهم شيئا
يصلح للنضال والحرب ..

وعاد مارسيلينو وساتوس يقول :

— نحن لا نجمع مقاتلين .. ان حركتنا ليست مجرد حركة عسكرية .. انها حركة سياسية شاملة .. نحن نجمع الناس من القرى .. ونحاول أولا ان نحولهم الى أفراد منظمين داخل الحركة .. وفي البداية لابد أن نعطي لكل واحد منهم جرعة سياسية سريعة .. يفهم كل منهم فيها شيئا عن موزمبيق والبرتغال وقصة الاحتلال .. وحتمة الكفاح المسلح لخراجهم من بلادنا ..

بعد هذا يترك لكل فرد حرية الانضمام لاحدى القواعد العسكرية السرية للحركة .. أو الاكتفاء بان يظل مجرد عضو مدنى فى الجبهة .. وحتى اذا انضم احدهم لهذه القواعد فان التربية والتوجيه السياسى تكون فى انتظاره بجانب التدريبات العسكرية .. وكذلك بعد أن يلتحق المحارب باحدى الفرق .. ويدخل فى معارك مع البرتغاليين فان التوجيه السياسى لابد أن يأخذ مساحته الموقوتة بين المعارك ..

وفى كل معسكر حربى يوجد (قوميسير) وهو المسئول السياسى عن المعسكر .. هناك جلسات سياسية بعد المعارك .. ومناقشة موضوعية لاختفاء كل معركة والدروس الايجابية المستفادة منها ..

مدارس سياسية

ولكى نعرف أن حركة تحرير افريقيا .. لم تنجح عبثا ..
فاننى أسوق لك ما شاهدناه فى أحد المعسكرات السرية القريبة
من معسكر (ليودى) .. بموزمبيق كان هناك مجموعة من
المحاربين وأمامهم سبورة .. اعتقدنا انهم يأخذون درسا نظريا
فى استعمال سلاح جديد .. ولكننا فوجئنا انها إحدى المدارس
السياسية الموجودة فى بعض المعسكرات وعلما ان لهذه المدارس
برنامجا معروفا .. ومدة محددة للتخرج وانهم يدرسون فى
هذه المادة :

✳ تاريخ موزمبيق ..

✳ تاريخ حركات التحرير التى سبقت حركة تحرير
موزمبيق ..

✳ جغرافية البلاد وثوراتها ..

✳ لماذا حاربت وتضارب افريقيا الاستعمار ..

وعلمت بعد ذلك ان هذه المدارس تعتبر مدارس سياسية
(أولية) .. وان هناك مدارس أكثر تخصصا يدخلها قادة
محاربون .. لديهم استعداد للتربية السياسية .. وتولى العمل
السياسى بعد الاستقلال .. أى انها مدارس لخلق الكوادر
السياسية للثورة .. من الآن ..

اطلعت على برنامج هذه المدارس العليا ، وفعلا كل برامجها
أكثر تخصصا وأهمية .. فهم يدرسون مثلا :

* معلومات عن افريقيا — تاريخها — حاضرها — مشاكل
التنمية بها ..

* أيديولوجية الرأسمالية والاستعمار .. وفلسفة قاداتها
في ضرورة السيطرة على ثروات العالم .. مع دراسة تطبيقية
لما يحدث في موزمبيق ..

* معنى الدولة والأمة .. والفرق بين الولاء للدولة
والولاء للقبيلة ..

* التنظيم الحزبي وضرورته ودوره السياسى ..
وأهدافه .. وهو نوع من التنظيم الذى يجب أن يطبق في
المناطق المحررة لكي يبدأ شعب موزمبيق حياة متحضرة ..

ولم يكن يشترطوا ايمان كل المحاربين بالاشتراكية ..
لأنهم يرون انه ليس من المهم في وقت الأزمات والحروب ..
وتعرض البلد لخطر الاحتلال أن يحتدم النقاش عن النظام
الاجتماعى أو الأيديولوجية التى يؤمن بها المحارب .. يجب أن
تأخذ هذه المناقشات — ولو مؤقتا — خطوة الى الوراء ..

وبعد ذلك كل شئ يمكن أن يصبح سهلا بعد الاستقلال
وزوال الخطر .. والتخلص من العدو المشترك ..

وهكذا تحولت ثورة موزمبيق - على يد « الفريميلىو » -
الى ثورة منظمة ناضجة لها استراتيجيتها السياسية
والعسكرية معا ..

أما قبل سبتمبر ١٩٦٢ فقد كانت قضية موزمبيق موزعة
بين ثلاث منظمات هي (الالاندناور) و (الرانو) و (الانامو)
وقد توحدت هذه المنظمات جميعا في سبتمبر عام ١٩٦٢ في
جبهة واحدة أطلق عليها جبهة تحرير موزمبيق والتي تعرف الآن
بحركة (الفريميلىو) ..

وقررت هذه الجبهة في مؤتمرها الأول الذى عقد في
دار السلام ان تتم عملية تحرير موزمبيق بقوة السلاح ..
وبقوة السلاح فقط .. وذلك بعد ان يست الحركات السابقة
من الوصول الى حل سلمى مع البرتغال .. وقضية موزمبيق
تختلف عن جميع قضايا التحرير فى شىء واحد ..

ان الدولة المستعمرة وهى البرتغال .. كانت ترفض تماما
الخروج من مستعمراتها الافريقية .. لأن سياستها الاقتصادية
مرسومة منذ القرن السادس عشر والذى تم فيه الاحتلال على
أساس الاعتماد على ثروات كل من موزمبيق وأنجولا ..
وباختصار فالبرتغال دولة فقيرة .. وكان تفكيرها غير
حضارى .. ولم تكن تعترف بحركة التاريخ ولم تكن قد نظمت

اقتصادياتها ولم تعد نفسها لذلك اليوم الذى ستخرج فيه
من افريقيا .. كما فعلت انجلترا وفرنسا مثلا ..

الليل الحاسم

وبهذه الجدية وعلى هذا المستوى من النضج شاهدنا رجال
الحركة .. وهم يحاربون .. وهم يتدربون .. وهم يستعدون
للمعارك .. وهم قادمون منها .. انهم ليسوا مجموعة من
الساخطين تحمل السلاح لاطلاق الرصاص على عدو مجهول
الحجم والقوة .. انهم يعلمون الكثير عنه قبل أن يجدوا أنفسهم
أمامه .. ويعرفون انه أكثر منهم عددا وأقوى سلاحا ، وقد
قرروا - رغم هذا - حتمية الحرب معه .. وعرفوا الطريقة
المثلى لتدميره وتحطيم معنوياته ..

عرفوا في بداية الكفاح ان على ١٥٠ منهم مجابهة ٤٠ ألف
برتغالى فاتبعوا تكتيك (اضرب واهرب) .. لارهاق العدو ..
وخلال ست سنوات أخذوا يضاعفون عددهم من المحاربين دون
أن تتوقف الحرب لحظة واحدة .. فلا بد أن يظل العدو في حالة
ذعر وتعب مستمر ..

وقد تعب العدو فعلاً .. فترك لهم الريف أولاً .. ثم
المدن .. وأخيراً العاصمة .. حيث حصلت موزمبيق على
استقلالها ..

عندما يقرر العراة

ورغم أننى .. زرت موزمبيق والتحت بشوارها .. فلم
أكن أعتقد انها ستحصل على استقلالها بهذه السرعة فقد رأيتهم
داخل الأحرار لا تستر أجسادهم سوى بعض الملابس
الممزقة .. لا يملكون سوى بعض الأسلحة البسيطة .. التى
تهبها لهم بعض الدول .. يققون تحت الأشجار المهددة بقنابل
النابالم البرتغالية .. لا مأوى لهم سوى بعض العشش الخاوية
من الطعام و .. من كل ملذات الحياة .. ولكنهم كانوا يجمعون
على قرار واحد .. القتال حتى تحرير موزمبيق ..

انها قرارات من لا يملك شيئاً .. ضد من يملك كل شئ ..
قرارات من لا مأوى لهم .. ضد من احتل كل مأوى ..
قرارات من يحمى نفسه بيندية تبحث عن رصاص ..
ضد من يحمى نفسه بطائرة تطلق الصواريخ ..
قرارات من عراة .. لا يملكون سوى حق غير معترف

به .. وثورة ضد عدو عنيد كانت لحميه أمريكا .. وقوى حلف
الاطلنطى .. وكل قوى الظلم والشر فى العالم ..

ولذلك .. كان تأثرى بالغاً .. وأنا أودع قادتهم فى آخر
معسكر زرته .. وهؤلاء الثوار يقفون فى صلابه .. يستقبلون
احدى الوحدات العائدة من معركة عنيفة مع البرتغاليين ..
بنشيد يلهب الحماس ويذيب كل يأس ..

نحن ثوار الفريميليو ..
سنحارب العدو فى كل مكان ..
فوق الروابي وتحت سفوح الجبال ..
سنحارب حتى الموت .. من أجل تحرير موزمبيق ..
لا .. بل من أجل تحرير افريقيا كلها ..
افريقيا كلها ..

كان تأثرى كبيراً وأنا أسمع كلمة « افريقيا كلها » من أفواه
هؤلاء الثوار العراة ..

وسألت مارسيلينو ونحن فى :
- أليس هذا نوعاً من الخيال ..
ورد مارسيلينو على الفور :
- وما الخيال فى هذا يا أخى .. انهم ثوار .. ومهمة

التأثر في أى زمان ومكان .. تحويل الخيال العظيم .. الى
واقع أعظم ..

و .. لم أجد ما أقوله .. سادت بيننا فترة من الصمت ..
سرحت خلالها فيما قاله لى مرافقى مارسيلينو فى الليلة
الماضية عن فظائع البرتغاليين وكان أفظع هذه الحوادث ..
انها جمعت قادة احدى الحركات الثورية التى قامت ضدها ..
وضعتهم فى طائرة ارتفعت بهم فوق احدى بحيرات موزمبيق
ثم قامت بقذفهم جميعا - وهم مقيدون - فى هذه البحيرة ..
أمام عدد كبير من المواطنين ..

عندما تذكرت هذه الأحداث المتوالية ضد الثورات
الموزمبيقية .. وظروف البرتغال وفقر بلادها .. الذى يجبرها
على عدم الخروج من أنجولا وموزمبيق .. رغم خروج بلد
عظمى كبريطانيا من جميع مستعمراتها فى افريقيا ..

وجدت نفسى أعود لمناقشة مارسيلينو :

- ولكن ألم تصب هذه الأحداث نفسية الشعب
الموزمبيقى ؟

ورد وهو مازال مصرا على الايجاز :

- نعم اصابته .. ولكن بمزيد من الماراة والحققد ..
وبالتالى بمزيد من الاصرار على الاستمرار ..

وقلت له :

— ولكن هذا الاستمرار اللانهائي .. الا يصيب البعض بالتعب ؟

قال :

— بالطبع .. كأي ثورة طويلة .. هناك باستمرار من يسقط في الطريق .. انهم يصابون بمرض معروف الآن في الدوائر الثورية .. ويطلقون عليه التعب الثوري ..

قلت :

— التعب الثوري ..

قال :

— نعم .. وهذا المرض من أعظم المشاكل التي تواجه الثورات وبالذات الثورات الطويلة المماثلة لثورة موزمبيق ..

ثم استطرد :

صحيح أن « التعب » الثوري مرض .. ولكننا نرى فيه مصفاة .. لتنقية حركة نضالنا من الضعاف والمخادعين .. والانتهازيين وتجار الثورات ..

طائرة برتغالية مؤقتا

وعند هذه النقطة من الحديث .. كنا قد وصلنا على
الأقدام في طريق العودة الى آخر نقطة من حدود موزمبيق ..
الى نهر روثوما .. الذى يفصل موزمبيق عن حدود تنزانيا ..
كان القارب فى انتظارنا .. رمينا أجسادنا داخله .. فلم تعد
أقدامنا المرهقة تقوى على احتمال أجسادنا .. مضى القارب
الافريقى الرفيع يشق لنهر .. لاحت منى التفاتة لاهثة الى وجه
زميلى المصور وكدت لا أعرفه .. كان فى منتهى الاعياء وقال
لى بصوت خافت .. اننى بعد النهر .. لن أستطيع أن أخطو
على قدمى خطوة واحدة وعبر لى فى النهاية عن قمة ما يحس به
من ارهاق فقال :

— اتنى أرغب الآن فى ان أقذف بنفسى فى النهر .. على
مواصلة الطريق على الأقدام .. وأحسست بخطورة الموقف ..
فعندما يقول زميلى هذا .. وهو لا يستطيع السباحة ..
فمعنى ذلك انه تعدى مرحلة التعب الى ما هو أقسى منها الى
شبه رغبة فى الانتحار .. ولكننى أحسست أنه متعب فعلا ..

فى هذه اللحظة مرت طائرة فوق النهر .. ولاحظت ان
محمد سعيد لا يكاد يشعر بها .. ونظرت الى مارسيلينو ..

فلاحظت انه قلق علينا .. ان مهمته ان يذهب بنا الى موزمبيق
ويعود بنا سالمين .. ان موتنا يعنى فشل مهمته ..

وقال لى : اننى لم اتضايق من رؤية طائرة برتغالية قدر
ضيقي الآن .. رغم أن رؤية الطائرات البرتغالية فوق أدغال
الشوار شيئا عاديا لدرجة اننا عندما ذهبنا لزيارة أول معسكر
سرى .. وقف مارسيلينو ليقول أمام حطام بعض المواقع
المحترقة :

ـ يبدو ان المعسكر قد ضرب بالقنابل ..
وانتقل بنا الى مكان آخر ليقول لنا .. لقد غير المعسكر
موقعه هنا .. وأشار الى معسكر جديد .. التقينا بأبنائه
ليرووا لنا فى ايجاز ان طائرة برتغالية هاجمت معسكرهم بالقنابل
منذ أسبوع .. ولم يصب سوى مقاتل واحد بجراح .. ولكن قلق
مارسيلينو زال .. بعد اختفاء الطائرة .. واقتربنا مرة أخرى
من شاطئ العودة ..

وبعد أن نزلنا من القارب .. شعرنا ان المصور محمد سعيد
لا يقوى على الوقوف .. حملناه تحت ظل شجرة حتى
يستريح .. فقد كان لابد لنا أن نواصل لنلحق طائرة حجزنا
عليها لتحملنا الى دولة افريقية أخرى .. ولكن ما أن أنزلناه على
الأرض حتى قام ليفرغ كل ما فى بطنه ..

وحتى تتمكن من اللحاق بالطائرة .. تم الاتفاق على صنع

نقالة عاجلة من فروع الشجر لحمل محمد سعيد و .. قام اثنان من الثوار بحمل النقالة .. سار الموكب في بطء القائد في المقدمة .. أنا بجانب النقالة في الوسط .. بعض الحراس المسلحين في المؤخرة .. مضت ساعة بهذا الوضع تحت حرارة الشمس اللافتحة .. لم تكن هناك سحب وشغرت ان كل الظروف تتعاون في عدم اللحاق بالطائرة .. حتى الشجر الذى كان حولنا .. كان أغصانا بلا ورق ..

و .. جاء منحدر كبير .. ولم يستطع حاملوا النقالة ان يحفظوا توازنهم .. وأخذ الثوار يتبادلون حمل النقالة من التعب .. وشعر محمد سعيد انه يزيد من ارهاق من حوله وقرر ان يتحمل على نفسه .. ويجر أقدامه ويمشى بأى ثمن ..

و .. سار الركب مرة أخرى .. حتى رقد محمد سعيد مرة أخرى .. بعد أن أصبح بيننا وبين السيارة التى ستحملنا للطائرة أقل من ميل واحد .. ولكنه كان أصعب أميال الرحلة .. ميل يرتفع .. حتى القمة .. حيث تقبع السيارة التى أصبحت حلم كل منا .. وخاصة محمد سعيد ..

و .. اقترح أحدهم أن تنزل السيارة لتصعد بمحمد سعيد .. ولم يعارض أحد .. وذهب أحدهم وأحضر السيارة

في صعوبة بالغة حتى السفح .. وركب محمد سعيد .. وركبنا معه .. وأخذت عجالات السيارة تدور في طريق غير معبد اطلاقا للسيارات .. حتى وصلت الى منتصف الجبل .. وبدأ الموتور يزمجر فقد توقفت السيارة تماما ورفضت أن تتقدم خطوة واحدة وتعددت المحاولات اليائسة من سائق السيارة .. بين هبوط وصعود ..

وفجأة اختل توازن قدم السائق بعيدا عن موقع « الفرامل » .. وهوت السيارة بنا في سرعة مذهلة نحو سفح الجبل .. مرة أخرى

و .. لحقنا العناية الالهية .. وعثرت أقدام السائق على الفرامل في آخر لحظة .. بينما كادت مؤخرة السيارة تصطدم بصخرة عاتية ..

ونزلنا .. ونصحت محمد سعيد بضرورة الابتعاد عن هذه السيارة ومحاولة صعود الجبل بأي ثمن .. وامتل محمد سعيد للكلام .. وبدأ يحفر بأقدامه في ظهر الجبل بخطوات هائلة .. مرهقة مكثودة .. ومرت بنا الدقائق وكأنها سنوات .. كانت أرجلنا تتعثر وكأنها مكبلة بأطنان من الحديد .. حتى وصلنا بصعوبة للقمة و .. لكن السيارة أصبحت في السفح وكان علينا أن نتنظر ساعات حتى يجد السائق طريقة لتصعيدها فوق الجبل مرة أخرى .. وأصبح كل شيء جاهزا .. عدا

محمد سعيد الذى قال لى انه لن يتمكن حتى من ركوب السيارة
 قبل ان يستريح مدة لا تقل عن أربع ساعات .. وقررنا جميعا
 أن ننتظر وان نلغى من اذهائنا تماما فكرة اللحاق بالطائرة ..
 فلتذهب الطائرة الى الجحيم .. ان ما نمر به من تعب أقسى من
 الجحيم .. ورغم كل شىء فقد كنا نشعر جميعا بسعادة هائلة ..
 سعادة الانتهاء من مهمة صعبة ..

وبعد دقيقة من استقرارنا فى أحد المنازل على الحدود
 التنزانية .. رحنا جميعا فى نوم عميق .. استيقظنا مع غروب
 الشمس لنجد العربى فى انتظارنا .. لتبدأ بنا رحلة اخرى طوال
 الليل .. وحتى منتصف اليوم التالى .. لنصل الى دار السلام
 ونلحق بطائرة أخرى .. كان الله فى عون ثوار موزمبيق .. فقد
 كانت هذه الرحلة المروعة واحدة من رحلاتهم اليومية البسيطة ..



المشهد رقم (١٤)

عندما تدق طبول التحرير في تنزانيا

خلال الفترة التي أمضيتها في تنزانيا .. كنت أشعر كثيرا
أننى لم أغادر مصر .. فرغم انها تبعد كثيرا عن مصر (حوالى
٦٠٠٠ ميل) ورغم اختلاف معظم عادات الناس وقيمهم هناك
فإن النمط السياسى العام الذى اختارته تنزانيا لشق طريقها
بعد الاستقلال كان يذكر دائما بكل ما يحدث في مصر والمنطقة
العربية في عام ١٩٦٨ م .

وكما كانت تتعدد في تنزانيا حركات التحرير .. وتتعدد
مواقفها الصلبة مع حركة الشعوب الافريقية المتحضرة .. تتعدد
في داخلها .. الأجناس والحضارات واللغات المختلفة ..
ورغم أن عدد سكانها - حسب آخر احصاء - لا يزيد

على عشرين مليون .. الا أن هذا البلد الشاسع المساحة داخله
حوالى ١٠٠ قبيلة ، و ١٠٠ لهجة وثلاثة أديان عالمية ، وأربعة
أجناس مختلفة .. وأكثر من لغة محلية وعالمية ..

وبشىء من التفصيل .. سنجد أن تنزانيا كغالبية الدول
الافريقية تضم عددا هائلا من القبائل التقليدية القديمة ..
أشهرها قبائل « الشاجو » وهى أكثر قبائل تنزانيا ذكاء ونشاطا ..
ولذلك فأفرادها يحتلون معظم وظائف الحكومة الكبرى ..
فرغم أن هذه القبيلة هى أعرق قبائل افريقيا الا أن أفرادها
يهتمون اهتماما بالغا بتعليم أولادهم حتى آخر المستويات
الجامعية ..

وتأتى بعد ذلك قبائل الماساى .. وهم من أشجع الأجناس
الافريقية وأكثرهم قوة وبأسا و .. تخلصا فى نفس الوقت ..
لا يهتمون بمسألة التعليم وأقلهم استجابة لما حوالهم من تيارات
حضارية .. ويقال فى بعض الدراسات - انهم ينحدرون من
أصول فرعونية من قدماء المصريين الذين كانوا يهربون ويمضون
جنوبا متخذين من شاطئ النيل مرشدا لهم فى رحلتهم نحو
عالمهم الجديد .. وهم أكثر الناس شجاعة فى الحرب .. ولا
يتزوج الشاب منهم الا اذا لفتاته رأس أسد مذبوح بعد معركة
« شرسة » مع هذا الأسد ..

وتأتى فى النهاية قبائل (الهجى هجى) الذين يسكنون

الجنوب الأوسط من تنزانيا .. وهى من أشرس قبائل افريقيا ،
ولها شهرتها التاريخية فى مقاومة الاستعمار الألمانى مقاومة
اسطورية من خلال حركتهم التى عرفت فى تاريخ تنزانيا باسم
حركة « الماجى ماجى » ..

والى جانب الجنس الافريقى .. الذى انتشرت المسيحية
بين ٣ مليون منهم .. نجد العرب الذين يعتنقون الاسلام
وعدددهم ٤ ملايين ثم الهنود ١٥٠ ألف ويعتقون الهندوسية ..
ثم عشرون ألفا من الأوروبيين فضلو البقاء فى تنزانيا بعد رحيل
الاستعمار ..

ولا يمكن لأى دارس أو زائر لتنزانيا أن يتجاهل ٤ ملايين
عربى مسلم يعيشون فى هذه البلاد ..

وقد هاجر هؤلاء الى هذه البلاد وغيرها من بلاد الشرق
العربى واستطاعوا أن يضيفوا لأهلها وحضارتها الكثير ..
ويكفى أن نعلم أنهم خلقوا هناك - بامتزاجهم مع الإفريقيين -
لغة جديدة هى اللغة السواحلية وهى خليط من الكلمات
الافريقية والعربية وهذا سر ان معظم العرب الذين يسافرون
الى شرق افريقيا يسهل عليهم استعمالها بعد شهور قليلة من
احتكاكهم بالناس هناك ..

وقد جاء العرب الى هذه البلاد من مسقط وحضرموت
وعدن .. كتجار يحملون معهم ثقافتهم وحضارتهم ودينهم

الذى ما لبث ان انتشر بين الكثيرين من الافريقيين .. ولما اتسعت أعمالهم ومؤسساتهم التجارية كونوا عددا من الممالك والسلطنات لحماية وجودهم على الساحل الكبير الذى امتد من مومباسا شمالا الى موزمبيق جنوبا ..

ويكفى أن نعلم أن دار السلام عاصمة تنزانيا ليست سوى واحد من الاضافات الحضارية التى أهدها العرب لشرق افريقيا فى مجال المعمار .. واذلك فان المباني - فى دار السلام - وليس الطابع السياسى فقط - يشعرك دائما بأنك لم تفارق المنطقة العربية .. وخاصة فى زيار الجزييرة المواجهة لتجانيقا والتى أصبحت تكون معها جمهورية تنزانيا ..

هذه الجزييرة التى حط عليها الرحالون العرب وقت ان كان المحيط الهندى والهادى بحورا من الظلمات المجهولة .. واستطاعت هذه الجزييرة بعد ذلك ان تقوم بدور حضارى .. فتربط عالم ودول المحيط الهندى بقلب افريقيا الموحشة .. قبل أن يطأها قدم أوربى واحد ..

وقد شهد تاريخ هذه الجزييرة دورتين حضاريتين كانت أولاهما فى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى ، وقد تحطمت هذه الدورة على أيدي البرتغاليين الذين كانوا يتحسسون طريقهم الى الشرق الأقصى .. فأحسن المسلمون لقاءهم ولكنهم غدروا بهم ثم قادوا سفنهم فى المحيط الهادى الى الشرق الأقصى

لينشروا بعد ذلك جوا من الارهاب في عالم المحيط الهندي
احراقا وهدما واغتصبا وتدميرا للحضارات ..

وظل هذا الليل الثقيل جاثما على صدر شرق افريقيا ،
حتى استطاع عرب عمان (مسقط) أن يستعيدوا مراكزهم وأن
يبدأوا دورة حضارية جديدة بلغت ذروتها في القرن التاسع عشر
على يد السلطان « سيد سعيد » من آل عمان .. وخلال هذه
الفترة كان الكتاب الأوربيون يقولون عن الجزيرة :

« اذا ما سمع صوت الناي في زنبار رقص عليه
الوطنيون في قلب افريقيا » ..

وهذا هو سر الاهتزاز العنيف الذي أحدثته ثورة الجزيرة
منذ سنوات قليلة .. كانت ثورة أصدق ما يقال عنها انها
كانت ثورة الفقراء ضد الأغنياء .. كل الأغنياء .. سواء
كان هؤلاء الأغنياء من العرب أو الافريقيين .. راح ضحية
هذه الثورة أكثر من عشرة آلاف .. ولكنها انتهت بنتيجة
هائلة .. تتمثل في اتحادها مع تنجانيقا .. جارتها الكبرى
ليصبحا دولة افريقية جديدة .. ولكنها ثورة - للأسف كانت
على حساب الوجود الاسلامي في الجزيرة

ورغم انها أصبحت الآن جزء من جزء من تنزانيا العلمانية
.. الا أن هذه الجزيرة تحتفظ بطابعها الخاص .. وتراثها
الحضاري الاسلامي العربي .. وأهلها يمتازون بالجرأة .. وعدم

الخنوع .. فهم أحفاد مجموعة من المغامرين العرب .. ثم ان
حكاياتهم .. وأساطيرهم تحمل أكثر من رواية عن بطولات
أجدادهم ضد القراصنة البرتغاليين والألمان والإنجليز ..

وإذا أضفنا الى هذا ما تضيفه القيم الاسلامية للرجال
من قوة في قول الحق وما تفرضه عليهم من ضرورة مواجهة الفساد
لاستطعنا أن نفهم سر الثورات المفاجئة التي تنشأ من حين لآخر
في هذه الجزيرة العجيبة .. وتثير هزات عنيفة لا في تنزانيا
وحدها .. بل في افريقيا كلها .. ولذلك اشتهرت تنزانيا بأنها
كانت تحتضن كل حركات التحرر التي كانت تعمل .. لتحرير
موزمبيق وزامبيا .. وتعتبر نفسها احدى دول المواجهة
الآن .. وتساند موزمبيق في احتضان القوى المناوئة لنظام
« بريتوريا » الحاكم في جنوب افريقيا .. وما زالت تحتفظ
بسمعتها الاولى التي تتردد بين دول شرق افريقيا .. عندما
تدق طبول التحرير في تنزانيا .. رقصت عليه قوى التحرر في
قلب افريقيا ..

الشهد الأخير

افريقيا خارج الأدغال

في نهاية هذا الكتاب .. لا بد من كلمة .. نوضح فيها
 أن المشاهد السابقة .. كانت تدور معظمها .. في ساحة افريقيا
 الأحرش .. ولكن حياة الأحرش .. تمثل وجها واحدا من
 العملة .. فهناك حياة أخرى في المدن تمثل الوجه الآخر
 لافريقيا .. وجه يجب أن نتعرف عليه .. حتى تكتمل الصورة
 في ذهن القارئ .. ولا تبدو افريقيا في نظره مجرد تلك الأدغال
 البدائية .. التي يراها من خلال أفلام طرزان .. هناك حياة
 أخرى في المدن .. يجب أن تراها .. وتحسها بها .. وهذا
 ما فعلته ..

ولذلك كان لقائي بافريقيا .. مشيرا ورائعا ..
 وكان احتكاكي بشكرها .. أكثر إثارة .. وروعة ..
 فمنذ اللحظة الأولى التي وطئت فيها قدمي أرض
 القارة .. وكان ذلك في (دكا) عاصمة السنغال - كان الغلاف

عنيفا بين ما كانت تعرضه الزوايات .. وبين ما أراه مجسدا
أمامي .. وكان الخلاف شاملا .. وجذريا في المظهر ..
والجوهر على السواء ..

✽ في ذاكار :

تلاشت تماما تلك الصورة الرقيقة المتواضعة التي رسمتها
الأفلام الاستعمارية في ذهني عن المدن الإفريقية أمام تلك العمارات
الشاهقة .. والشوارع النظيفة .. والميادين الرائعة التي تملأ
أحياء العاصمة ..

✽ وفي أكر :

تراجعت تلك المشاهد الإفريقية التقليدية للمجموعات
القبلية المتناحرة برقعاتها الوحشية .. وسهامها الساذجة ..
لتحل محلها صورة شعب كامل بـ ٩ ملايين نسمة - ينظم في
حزب واحد يناضل من أجل هدف واضح ..
مستخدما أحدث الوسائل التكنيكية .. ليحتل مكانه بين
الشعوب المتحضرة ..

تحت خط الاستواء .. يحلو للكتب الاستعمارية
أن تروى للناس قصصا خيالية عن أكلة لحوم
البشر ، رأيت أعظم تجربة إفريقية لتنظيم الشباب التي يطلقون
عليها « الجيمير » .. وقد نجح هذا التنظيم واستطاع أن

يصل إلى كل مدينة وكل قرية .. لدرجة إن الحكومة تعتمد عليه في حكم البلاد .. وفي مقاومة الحركات الرجعية المناوئة ..

وفي لاجوس : عاصمة نيجيريا اختفت من ذهني تماما صورة افريقيا التقليدية .. ففي تلك المدينة الضخمة التي تنافس عماراتها ناطحات نيويورك .. وتقرب كثافة سكانها من زحام القاهرة وتتفوق معاركها السياسية على ما يحدث بين أحزاب روما .. في هذه المدينة تتلاشى أمامك الصورة القديمة ..
— نفسك — من حدة ما تراه من تغير أمام سؤال بديهي :

— أين ذلك الذي تراه في السينما ؟

القبائل .. والرقصات — والسهام .. ومظاهر التأخر والهمجية ..

وتسمع أكثر من مثقف — يقول لك : إنه موجود .. في المناطق الريفية .. في الغابات .. في الأعراس .. ولكن بصورة أخرى ..

وعندما تذهب — بدافع الفضول — إلى هذه المناطق ، ترى القبائل حقا ، والرقصات والسهام ، ولكن بلا وحشية ولا همجية ..

وانما هم اناس واعون مسلمون ، تماما كما يحدث عندما تزور إحدى قرى الريف هنا ..

وهم يرقصون .. كما يرقص النوبيون في كوم أمبو ..
ويمسكون بالسهم كما يمسك الصاعدة في أسوان بالعصى
في رقصة التحطيب ..

حدث هذا في كل القرى التي زرناها ..
وما من زائر يذهب هناك لأول مرة الا ويبدأ جولته وفي
ذهنه ما سمعه عن « نيام نيام » و « الواق واق » .. وفي خياله
صورة الرجل الأبيض وهو مغروس في اناء كبير وسط مياء
تغلى حولها النيران .. وشباب مسعور يتراقص حوله .. ولكنه
في النهاية .. يفاجأ دائما بالعكس ..

اناس طيبون يستقبلونه دائما بالترحاب ..
وعندما يتساءل اذن فأين تلك الصور البشعة ؟
يقال له :

— انها صورة بالغ فيها الاستعماريون .. والتقطتها
السينما الغربية لتجسم تأخر القاره ولتبرر بقاءهم فيها ولالأبد ..
وحتى في تلك الصورة الوهمية التي رسمها الاستعماريون
للرجل الافريقى الذى يعيش في الغابة .. يصارع الوحوش
ويطاردها .. ويصطادها في شجاعة نادرة .. صورة — أيضا —
أقرب الى الخيال ..

فالرجل الافريقى — الآن — لا يعيش داخل الغابة ..

وانسا على أطرافها .. وهو يخاف - كآى انسان - من الاقتراب
 ويطاردها .. ويصطادها فى شجاعة نادرة .. صورة - أيضا -
 من مناطق الحيوانات المفترسة .. وهو لا يحاول مطلقا
 الدخول الى قلب الغابة .. الا عندما تدفعه الحاجة الى اصطياد
 بعض الحيوانات الصغيرة التى تعود على ذبحها وشوائها ..
 أو عندما يريد الحصول على بعض أنواع الفواكه يلتقطها
 بالنهار ويسرع بها - خارج الأدغال - قبل أن يلحقه الظلام ..
 ولم يدفع الافريقى الى دخول الغابة - بعد العصور
 البدائية الأولى - سوى بعض المغامرين من البيض ، الذين جاءوا
 بينادقهم ومعداتهم الحديثة لاصطياد الحيوانات المفترسة وبيعها
 بأرباح خيالية لحدائق الحيوان ..

فالرجل الافريقى - منذ اكتشاف الزراعة - يعيش
 وادعا - كآى ريفى - على أطراف الأدغال لا يجروء على الاقتراب
 منها الا فى ظروف اضطرارية ..
 هذه هى الحقيقة العامة .. سواء فى المدينة الافريقية ..
 أو فى القرية .. أو فى الأدغال ..

اذن .. فلم تعد افريقيا - كما تصورها الصحافة الغربية -
 مجرد أدغال موحشة .. يعربد فى أحشائها ذلك الصراع التقليدى
 الساذج بين الحيوان والانسان .. ولكنها أصبحت عالما
 جديدا .. يتفجر داخله ذلك الصراع الأبدى المريع بين التآخر
 والتقدم ..

الفكر الافريقى

ولكن كيف يفكر هذا العالم الجديد ..
هل له فلسفة خاصة يمكن أن نطلق عليها « الفلسفة
الافريقية » ؟

الواقع ان الاجابة العامة على هذا السؤال .. تقول نعم ..
هناك فكر افريقى .. و .. أيديولوجية افريقية ..
ولكن .. اذا جسدنا الاجابة على الواقع « السياسى »
و « الاجتماعى » للمقارة .. فلن تأتى الاجابة بهذه السهولة
التي نتصورها .. لعدة أسباب تاريخية وسياسية هادفة
نتلخص فى :

✳ أولاً - اتساع القارة :

فافريقيا تبلغ مساحتها مساحة أمريكا الشمالية وأوروبا
والهند مجتمعة وتحوى أكثر من ٤٦ دولة .. وتكلم أكثر
من ٣٠٠٠ لغة ويعيش عليها حوالى ٥٠٠ مليون من البشر ..
فى ظروف مناخية مختلفة ..

✳ ثانياً - اختلاف التاريخ

وهذا الاختلاف حدث بسبب اتساع الرقعة .. وتنوع
الحضارات والحركات ونظم الحكم التى نبتت على أرض

القارة .. وبالتالي نوع الأفكار والتقاليد التي تكون منها
« الوعاء التاريخي » للقارة الافريقية .. وكلمة « تاريخ » هنا
أعنى بها التاريخ القديم الذي سبق عصور الاستعمار ..

✽ ثالثا - تنوع الاستعمار :

فأفريقيا لم يستعمرها بلد واحد .. فبالرغم من أن عصر
الاستعمار الافريقي بدأ منذ خمسة قرون ببعض المغامرين
والقراصنة من الاسبان والبرتغاليين ، الا انه ما لبث ان انهار
على أراضيها بعد ذلك ألوان أخرى من الاستعمار البلجيكي
والألماني والفرنسي والانجليزي .. ولاشك ان اختلاف جنسية
الاستعمار .. وتعدد النظم كان منبعا آخر من منابع اختلاف
« وعاء » الفكر الافريقي ..

✽ رابعا - اختلاف الحكومات :

فأفريقيا - بعد الاستقلال - لم تتول السلطة بها حكومة
واحدة أو حكومتان كما حدث بالقارة الأمريكية مثلا ..
وانما عدة حكومات ذات ايدولوجيات مختلفة .. ويرأس معظمها
حكام تربوا في مدارس سياسية مختلفة .. ويقدر ما يعطى هذا
الخلافا من « حيوية » للفكر الافريقي المعاصر .. بقدر
ما يفتت من وحدته .. ويشئت كيانه خاصة وأن « بعض »
هذه الحكومات يرأسها حكام عسكريون لا يعبرون تعبيرا دقيقا

عن ارادة شعوبهم .. وبالتالي عن أفكارهم الحقيقية .. بقدر ما يعبرون عن ارادة وأفكار بعض المصالح والمؤسسات العسكرية المعاصرة .. أو بعض الدوائر الخارجية ..

✽ خامسا - الاحتكاك العالمى :

فالقارة الافريقية - كأى مكان فى العالم - لا تعيش الآن منفصلة عن تأثيرات العالم الخارجى .. بفضل تقدم وسائل الاتصال الحديثة .. وهذا العامل قد أزال تماما من قاموس الفكر العالمى « المعاصر » تلك النغمة الدارجة التى كانت تتناول بالدراسة « الفكر الصينى » و « الفكر الهندى » « الفكر الأوروبى » و .. كذلك « الفكر الافريقى » ..

وأصبحت هذه الدراسات تنحصر فقط فى المجال « التاريخى » حيث كانت الحضارات منفصلة و « ذاتية » وبعيدة بحكم ندرة وسائل الاتصال عن التأثيرات الخارجية .. ولذلك فما زالت هناك دراسات محددة فى « الفكر المصرى القديم » و « الفكر اليونانى القديم » ..

ولكنك لا تجد دراسة فى الفكر الروسى أو الفكر الأمريكى المعاصر .. الا وتجد بنفس الدراسة - كلمة تأثير هذا الفكر أو تأثيره بالفكر العالمى ..

وإذا كان عامل الاحتكاك العالمى .. يعتبر عاملا يزيد من

صعوبة تحديد الفكر الأوربي أو الأمريكى أو الروسى المعاصر ،
فانه — بالنسبة لافريقيا عامل « أصعب » .. لانه بوجه
عام — كقارة نامية — تسعى وراء التقدم .. تأخذ الآن وتتأثر
بالحضارات المختلفة أكثر مما تعطى وتؤثر .. وهذا مما يزيد
رصيدها من الفكر الخارجى .. ويعرقل من توحيده وتحديده
فى الوقت ذاته ..

✽ هكذا تفكر القارة :

وقد يصدم هذا التحليل — رغم بدايته — أحلام بعض
مفكرى القارة الذين ينادون بالوحدة الافريقية ..

ولكن ..

هذا التحليل — كآى تحليل علمى — يتناول تفسير
الواقع « الافريقى » أكثر مما يتناول الآمال والأحلام .. وهو
فى الوقت ذاته لا يقف موقفا معاديا أمام هواه تحديد ملامح
« الفكر الافريقى الوجدوى » .. أن هذا يتوقف فى النهاية
على مدى استجابة الشعوب الافريقية لهذا الفكر .. الذى ثبت
بعد كل هذه السنوات أنه مجرد أمل يداعب أحلام بنى
المفكرين ..

ووعم هذا .. فان العوامل الخمسة التى قد تعرقل بلورة
الفكر الافريقى الواحد .. وتتقف أمام أحلام الوحدة الافريقية

العاجلة •• هذه العوامل ذاتها •• قد تعثر بين ثناياها على ما يبعث
الأمل في بلوردة الفكر •• وفي تحقيق الأحلام الوحودية ••

فوحدة الأرض الأفريقية ••

ووحدة الفكر الأفريقي القديم الناتج عن تأثير الشغوب
الأفريقية بخضارات - ما قبل الاستعمار - على الأقل
بحكم الجيرة ••

ووحدة الوجود الاستعماري •• كسابقة تاريخية متشابهة
في جميع بقاع القارة •• بغض النظر عن « هوية » هذا
الاستعمار •• ومدة بقاءه ••

ووحدة المشاكل التي تواجه حكومات تحكم دولا نامية
تحاول أن تلحق بالركب بعد سنوات من الاستعمار الطويل ••

ثم وحدة التأثير بالعالم الخارجي ••

كل هذه المنابع التاريخية ••

و •• الروافد السياسية ••

تساعد في تحديد بعض « ملامح » الفكر الأفريقي ••
خاصة إذا استطعنا تخليص هذا الفكر من شوائب الانحرافات
الأيديولوجية لبعض الزعماء الأفريقيين •• أمثال « الحبيب
مورقية » وبوكاسو •• فانه يمكن - بعد ذلك - أن نجيب
على هذا السؤال الصعب •• كيف تفكر افريقيا ؟

فنقول :

ان افريقيا - بشكل عام - ينصب تفكيرها في هذه القوالب الرئيسية :

❖ كراهية شديدة للاستعمار :

وقد تأخذ هذه الكراهية صورة سلبية لا شعورية تظهر واضحة في تلك الاتجاهات الثقافية التي تهدف الى احياء التراث الافريقى القديم الذى حاول الاستعمار تدميره .. كما حدث في السنغال بقيادة زعيمها السابق « ليوبولد سنجور » ..

وقد تأخذ صورة ايجابية شعورية تبدو في تلك القرارات « الجادة » .. الاجتماعية التي تصدر ضد القوى الاستعمارية .. كتلك القرارات العنيفة التي تتخذها دائما منظمة الوحدة الافريقية المتعلقة بجنوب افريقيا ..

❖ شعور حاد بالتخلف :

فافريقيا تشعر أن الاستعمار قد تمكن من وقف عقارب التقدم بها خمسة قرون كاملة .. ولذلك نرى معظم الدول الافريقية - وحتى التي اختارت الطريق الرأسمالى - تلزم نفسها بخطة .. لتنمية مواردها ومضاعفة دخلها في أقصر وقت ممكن .. وحتى يتحقق هذا الهدف في وقت أسرع ، فهناك شبه اتفاق على :

✽ ضرورة الاستعانة بالتكنيك الخارجى :

وذلك حتى تتمكن القارة أن تبدأ - قدر الامكان - من حيث انتهى الفكر والتكنيك العالمى .. وحتى يساعد هذا التكنيك على ادارة عجلة التقدم الافريقى بأقصى سرعة ممكنة .. على شرط الا يمس هذا باستقلالها الداخلى أو الخارجى .. أو الانخلاع من جذورها وعلى أن يتم هذا فى أقصر فترة ممكنة باعداد جيش هائل من الجنود الافريقيين حتى تعتمد القارة على نفسها وتخلص استقلالها من أى مظهر من مظاهر التبعية السياسية أو .. الاقتصادية التكنيكية ..

هذه هى معالم الفكر الافريقى بشكل عام ..

هكذا يفكر رجل الشارع الافريقى

ولكن كيف يفكر ويعيش الرجل الافريقى .. والمرأة الافريقية .. هل ما زالوا - كما كانت تصورهم الأفلام - مجرد أناس تابعين للرجل الأبيض .. أم أنهم بدأوا يفيقون من رقادهم الطويل .. خلال سنوات الاستعمار ..

كيف يعيش رجل الشارع الافريقى (الحديث) ..

لقد شغل هذا السؤال ذهنى منذ اللحظة الأولى التى وطأت

فيها قدمائى السنغال .. وظللت أحاول تجميع عناصر الاجابة عليه طوال رحلتى فى بلاد غرب وشرق افريقيا بوجه عام ..

وكلامى فى هذا المجال سينصب على رجل المدينة الافريقية الذى اتيح له أن يحتك بتيارات العصر الحديث .. وأن يمتص منها ما يريد وما لا يريد .. الرجل الذى دهمته حياة المدينة .. وما زالت « حياة الأحرار » تقبع فى أعماق لاشعوره ..

ورجل المدينة يختلف الى حد كبير عن تلك الصورة التقليدية التى نراها دائما فى الأفلام الأجنبية .. فانك ترى فى حياته مزيجا غريبا من التقاليد الأوربية متعاقبة فى تشابك مثير مع التقاليد الافريقية القديمة .. وفى بعض الأحيان ترى حياته وقد تحولت الى صورة مشوهة من حياة الرجل الأوروبى .. وفى أحيان أخرى ستراه مرتدا الى تقاليد الأدغال رافضا كل تأثيرات المدينة ..

واذا ابتعدنا عن التفاصيل والاختلافات الفردية فسنجد أن رجل الشارع الافريقى يمتاز بعدة سمات « فكرية » عامة يمكننا تركيزها فيما يلى :

✽ احترام القوانين والمواعيد :

فالرجل الافريقى شديد الولع باحترام كل النظم التى تضعها الدولة .. وتستطيع أن تلاحظ هذا - للوهلة الأولى -

عندما تسير في شوارع المدن .. فشارات المرور الحمراء تحظى
باحترام يقترب الى حد التقديس سواء من المشاة أو راكبي
السيارات ..

أذكر أنني حاولت - في أحد شوارع دكا - عبور
الطريق عندما كانت شارة المرور مضاءة بلون وردى - حسب
النظام الفرنسي - ففوجئت بسيدة أفريقية تصرخ من ورائي
وكان كارثة على وشك أن تقع .. وحسبت أنني كدت أتعرض
لخطر داهم .. ولكنني اكتشفت أن الذي تعرض للخطر - من
وجهة نظر السيدة طبعا - هو نظام المرور ..

واحترامهم لشارات المرور لا يقتصر - فقط على الأماكن
التي يقف بها عساكر المرور ، وإنما يمتد حتى في الأماكن النائية
والشوارع الخالية من حركة السيارات وشارات عساكر المرور
ترتفع كلها الى درجة الأوامر التي لا تقبل المناقشة ، ومع ذلك
فإن عساكر المرور هناك يعاملون الجمهور معاملة رقيقة جدا ،
وإذا أرادوا تسجيل مخالفة فهم لا يفعلون ذلك دون علم
السائق ، بل يذهبون اليه - في أدب شديد ويفهمونه سبب
المخالفة و .. يحصلونها منه في الشارع .. إلا إذا كان السائق
مفلسا ..

وتنعكس صورة احترام القانون على حياة المحاكم ..
فقليل ما تنظر بهذه المحاكم قضايا سرقة أو نشل .. فمعظمها

قضايا مدنية تختص بالمشاكل التي تحدث خلال المعاملات التجارية ..

ويمتد احترامهم للقانون الى احترامهم للكلمة ، للميعاد ، فالافريقى لا يعرف الكذب .. وهو يعتبر الكذبة مجرد نكتة سخيفة لا يقدم عليها سوى انسان سخياف .. واهذا فان الافريقى (العادى) يصدق كل ما يقال .. وقد استغل الاسرائيليون هذه المسألة وأشاعوا بين أصدقائهم الافريقيين فى جلساتهم الخاصة .. ان اسرائيل « دولة افريقية !! » وأن مصر دولة آسيوية تقع شمال السعودية !! وأن العرب هم أصحاب تجارة العبيد فى غرب افريقيا .. وللأسف فقد صدق الكثيرون هذه الكذبة المغرضة حتى تعرفوا بالمصريين وعرفوا منهم الحقيقة ..

وكما يحترم الافريقى الكلمة - فهو يحترم - بشكل جاد المواعيد .. وقد لاحظت ان الافريقى يذهب دائما قبل الميعاد حتى يثبت انه أكثر تحضرا ومدنية من الرجل الأوروبى .. فالرجل هو المثل الأعلى لكل افريقى .. اذا استبعدنا .. كراهيته السياسية له .. كرجل مستعمر .. وفى رأى ان احترام الافريقيين للقوانين والمواعيد ليس واردا عليهم من الخارج .. ففى أعماق تقاليدهم القبلية ما هو أكثر من احترام النظم والقوانين ..

✳️ قدسية العمل .. وقدسية اللعب :

فالنظرة السائدة عن الرجل الافريقى انه مجرد انسان راقص
 .. تشده (دقائق الطبول) عن أى عمل جاد .. نظرة سطحية
 خاطئة .. واذا زرت أحد المكاتب الحكومية فى غانا أو السنغال
 أو الكونغو برازافيل .. فسيدهشك ذلك الهدوء الذى يخيم على
 المكاتب .. وذلك (الانهماك) الذى يسيطر على الموظفين السود
 انقد أخذوا فعلا عن الأوربيين هذه العادة الحسنة ، خاصة
 أن مواعيد العمل هناك محدودة وعلى فترتين :

✳️ صباحية .. من الساعة السابعة حتى الثانية عشرة ..

✳️ ومساءية .. من الساعة الخامسة حتى السابعة ..

وذلك لتفادى حرارة الجو والرطوبة ..

أما بعد العمل .. فالافريقى دائما مرتبط ببيعاده مع
 خطيبته أو صديقته أو زوجته ..

وكذلك الحال بالنسبة للموظفة الافريقية .. وفى بعض
 الأحيان يكون الجميع على موعد الى حفل راقص - خاصة
 ليلة الأحد - التى تخلو فيها شوارع مدن افريقيا .. فالكل
 مرتبط بمواعيد .. لحفلات خاصة أو عامة ..

وكذلك الحال بالنسبة للموظفة الافريقية .. وفى بعض
 وهكذا ينهمك الجميع ليلة الأحد - التى تخلو فيها شوارع

مدن افريقيا - وحتى الصباح - على أنغام رقصات
(الططم) السنغالية أو رقصة (البارلوجو) الغانية ..
أو رقصة (الهايلاف) في نيجيريا .. وكما يحترم الافريقيون
ساعات العمل .. فهم - كذلك - شديدا الحرس على احترام
مواعيد اللعب والرقص ..

✽ سهولة العلاقات بين الجنسين :

والعلاقة بين الشبان والفتيات في المدينة تمضى بغير تلك
الحواجز التي نعرفها في بلادنا وزوار الشرق الأوسط وحوض
البحر المتوسط قد يرون في هذا نوعا من (التحلل) ، ولكن
النظرة الموضوعية لهذه الظاهرة تجعل الزائر في نهاية الرحلة
يتراجع عن نظريته « الآثمة » لهذه العلاقات .. فالمسألة مجرد
تقاليد موروثة .. فكما أن من تقاليدنا مثلا عدم السماح للفتاة
بحرية الاختلاط .. وحرية الخروج مع صديقها .. وبضرورة
المحافظة على بكراتها حتى ليلة الدخلة .. فإن من تقاليدهم هناك
السماح لها - منذ الطفولة - بالاختلاط .. وبالخروج مع
أصدقائها في الحفلات العامة والخاصة .. وبممارسة حريتها
العاطفية والجنسية بنفس القدر المتاح للرجل ..

زارني ذات ليلة صديق نيجيري في فندق « الأمباسدور »
باكرا وأخذ - بعد حديث السياسة - يعدد لى مغامراته العاطفية
في أكرا .. ولما كنت أعلم أنه خاطب فتاة نيجيرية سألته - من

قبيل الفصول - الا يضايق هذا خطيته النيجيرية اذا علمت
فرد على في دهشة :

لماذا تتضايق ، انها تفعل نفس الشيء الآن .. في
لاجوس !

وعندما أثارتنى اجابته سألته :

- وألا يضايقك أنت ذلك ؟

قال :

- ان من حقها أن تمارس حريتها ..

وعدت أسأله وقد فاضت بي الدهشة :

- اذن فما الذى يضايقك ؟

قال في هدوء :

- ان أعود وأجدها حامل من غيرى ..

لا تدهش ::

انها تقاليدهم هناك .. تقاليد « الأدغال » التى ما زالت
قابعة فى أعماق الافريقى .. حتى وهو فى مدينة .. بها نامبات
سحاب .. مثل لاجوس .. أو أكرا .. أو داكار ..

وقد يحق، لنا أن ننظر لها نظرة غريبة لأنها مختلفة عن
تقاليدنا .. ولكن لا يحق أن ننظر لها نظرة (اشمزاز) ..
والا فماذا تكون نظرتنا لساكين الاسكيمو الذى يصبر على تقديم

زوجته لك في فراشك عندما يستضيفك ولو لليلة واحدة ..
اظهارا لحيه لك .. وحسن كرمه ..

✽ عقدة اللون :

ان السنوات الطويلة التي أمضاها الرجل الأبيض في
افريقيا .. لم يكن الرجل الأسود يرى خلالها الا أعنف صور
الاستغلال والاذلال .. هذه السنوات استطاعت أن تدمر الثقة
بين الطرفين وتجعلها قائمة على نوع من الريبة والحذر ..

ذهبنا ذات يوم الى ضاحية احدى العواصم الافريقية
الكبرى « لاجوس » .. وحاولنا تصوير احدى الرقصات
التقليدية .. العريقة .. كان كل شيء يسير بشكل عادى حتى
شاهد الجالسون الكاميرا ترتفع في يد زميلي محمد سعيد ،
وفجأة تغير كل شيء حولنا .. حاولوا الاعتداء على زميلي
بعنف .. ثم حاولوا خطف الكاميرا .. وعندما احتسب محمد
سعيد بالسيارة حاصروها ورفضوا أن تبارح عربتنا مكان
(الحادث) حتى يحصلوا على الفياض ..

وعبثا حاولت أن أفهمهم انه لم يلتقط صورة واحدة ..
ولكن بلا جدوى ، واستمر الحصار أكثر من ساعة .. وكادت
المسألة تتطور الى معركة دامية لو لم يمر علينا عمدة الحي
وينقذنا من أيديهم ..

وعندما استفسرت عن سر غضبهم .. اكتشفت انها عقدة قديمة .. انهم لا يسمحون هنا لأي صحفي (أبيض) بالعمل .. لماذا ؟

منذ سنوات حضر الى نفس المكان صحفي أمريكي ومعه كاميرا .. وسمحوا له بالتقاط كل الصور التي طلبها .. وبعد شهر فوجئوا بصورهم في المجلة مكتوب تحتها (القروء السوداء في افريقيا) .. وهذه الحادثة ليست سوى مثل بسيط على جو الريبة والشك الذي خلفه الرجل الأبيض داخل أعماق أخونا الافريقي الأسمر ..

✽ الوفاء للتقاليد :

وعدم ثقتهم في الرجل الأبيض .. وما عانوه من اضطهاد وكذب ونفاق وسرقة واستغلال تجعلهم شديدي التمسك بتقاليدهم (الأكثر) سماحة والأكثر نقاء .. ولذلك نلاحظ عامة انهم قليلوا الامتصاص للتقاليد البيضاء ..

وتلاحظ هذا بشكل واضح عندما يقام مهرجان في المدينة للاحتفال بذكرى قديمة .. فتجد كل من في المدينة .. وحتى من تعلم منهم في أرقى جامعات انجلترا أو أمريكا .. ينخرط مع الناس البسطاء في انحاء هذا التقليد سواء عن اقتناع أو غير اقتناع .. نراه فجأة وقد اندفع وراء (زنجيته) تاركاً وراء

ظهره كل ما فى ذهنه من علم وثقافة .. بعد أن أصبح جزءا صغيرا من عقل « الأحرار » الجماعى .. يرقص فى عنف .. ويصرخ فى وحشية وكأنما انبعثت من أعماقه شياطين الأدغال بكل ما تحوى فى أحشائها من تقاليد وصرخات مقدسة لأرواح الأسلاف ..

وقد رأيت هذا كله فى مهرجان (ملك لاجوس) كان الاحتفال بذكرى وفاة ملك لاجوس .. وتنصيب ملك جديد .. ومع أن هذا الملك .. مجرد صورة شرفية للمدينة التى يحكمها مجلس مدينة على أحدث النظم المتحضرة .. ومع أن تقاليد تنصيب هذا الملك لا تخضع لأى منطق علمى .. ومع أن الاحتفال فى المدينة يعطل المرور .. ولا يصلح الاحتفال بها الا فى الغابات .. الا انك تجد المدينة - فجأة - وقد اختفت وراء جانب من التقاليد القبلية العتيقة .. يباركها كل الناس من رئيس الجمهورية حتى آخر مواطن فى المدينة .. حتى انك تحس أن حياة الأدغال قد انتقلت الى المدينة فى هذا اليوم .. وهم سعداء بهذا .. فمن هذه الأدغال جاءوا .. والى حساتها تحن قلوبهم .. ولا ضرر فى أن تنتقل هذه التقاليد من حين لآخر الى مدينتهم الكبيرة حتى لو تعطل كل شىء فيها ..

ولماذا نذهب بعيدا .. أما زلنا - نحن - حتى الآن - نحتفل بوفاء النيل فى مصر بنفس الطريقة التى كان يحتفل بها

أجدادنا منذ ٥٠٠٠ سنة وعلى كل فليس هذا بغريب هنا
أو هناك فكلنا في الحنين الى القديم افريقيون ..

« الكسل والحر الشديد »

بعد ذلك لا نستطيع أن نتجاهل هذا الطابع الذي يكسو
حياة الناس هناك - الكسل وعدم الرغبة في العمل .. أو بمعنى
أدق عدم القدرة على مواصلة العمل مدة طويلة ..

فالرجل الأوروبي دائم الاتهام للرجل الافريقى بالتكاسل
في العمل .. انه يقول عنه دائما انه ليست لديه الرغبة في
العمل .. انه مازال يميل الى حياة الأدغال .. والى التكاسل
في ظلال الأشجار ..

وظاهرة الكسل ظاهرة صحيحة .. ولكن الاتهام خاطيء
وظالم ..

فالرجل الافريقى - فعلا - لديه رغبة شديدة في العمل
خاصة في هذه الفترة التي تحمل فيها وحده مسؤولية اعادة
بناء بلاده ..

ولكنه للأسباب خارجة عن ارادته (غير قادر) على مواصلة
العمل لمدة طويلة كما يحدث في منطقة مثل حوض البحر المتوسط
أو في أوروبا ..

وهو في ذلك معذور تماما .. فحرارة الجو الدائمة ..
المشعبة بالرطوبة تجعل الانسان هناك في حالة (دوخان) مستمر

وميل دائم الى الراحة والاسترخاء .. وكل الذين يزورون هذه المناطق لا يستمر نشاطهم هناك سوى أسابيع قليلة .. ويصبحون بعدها منافسين خطرين (للكسل الافريقى) المزعوم بل ان حرارة الجو تجعل الانسان يقدم على أشياء لم يكن ليقدّم عليها فى أى مكان فى العالم ..

كنت فى زيارة لأحدى القرى .. ورأيت فتاة تحمل صفيحة مياه من عين قريبة ، وعندما اقتربت من باب منزلها فوجئت بها تخلع ملابسها وتستحم فى الشارع .. و .. لم يكن الوقت ليلاً ..

هل تدرون ماذا كان شعورى ساعتها وأنا غارق فى بحر من العرق ومن الزهق من شدة الحرارة .. لقد كان شعورى أن أخلع أنا الآخر ملابسى واستحم – مثلها – أمام كل الناس .. وفى نفس المكان ..

فحرارة الجو هناك لا تؤثر فقط على اجسامهم وانما تؤثر – لشدتها – على تفكيرهم وعقولهم ..

ويرى بعض المفكرين ان افريقيا لن تتقدم – اطلاقا – الا اذا توصل أبناؤها لطريقة رخيصة لتكييف مناخها الحار .. وهم يبنون هذا الكلام على أساس حقيقة تاريخية تقول .. ان أوروبا لم تتقدم هذا التقدم الهائل ، الا بعد أن توصل سكانها من ايجاد وسائل التكييف الحديثة .. لمواجهة برودة الجو

وهم يؤكدون كلامهم .. بحقيقة أخرى .. وهى أن
أوروبا - أيام القرون الوسطى - كان سكانها مجرد رعاة
مرتعشين .. ينكمشون ليلا ونهارا أمام شعلات ساذجة من
النيران الدائمة ..

فهل تتوصل افريقيا - يوما ما - الى طريقة لتكيف
مناخها ؟



المهم .. أنه باكتمال الرؤية للقارة الافريقية .. أحراشا
وأدغالا .. ومدنا .. وجامعات .. يمكننا أن نقف على حقيقة
كانت غائبة .. عن وجداننا .. وأفكارنا .. التى شكلتها فى
أعماقنا .. الكتب الاستعمارية عن القارة « السوداء » ..
ان افريقيا اليوم ..

غير افريقيا الأمسى ..

فلم تعد قارتنا السمراء اليوم مجرد أحراش .. يطحن
احشائها ذلك الصراع البدائى الساذج بين الحيوان والانسان
ولكنها أصبحت عالم جديد يفجر أعماقه آلام قديمة مكبوتة
نحو التقدم .. ويداعب أحلامه أشوان طاغية .. نحو اللحاق
بالركب .. بعد قرون طويلة من الظلام والقهر والاستعباد ..

● لقطات من الرحلة



نوار انجولا في أحد المواقع السرية (قبل الاستقلال)



في افريقيا أيضا .. ملكات جمال



افريقيا أرض خصبة (للنضير) السياسى



عراة جنوب السودان .. بعد اجبارهم على ستر اجسادهم



المسلمون في غرب افريقيا .. مجرد « أزياء » .. دون فهم الاسلام



في جنوب السودان .. يحمون أجسادهم .. بالرماد .. من الناموس القاتل

(م - ١٦ - ١٠٠ يوم في أحراش أفريقيا)



فى هذا القطار هربت من البوليس ٠٠ فكانت أجمل رحلة قطار فى العالم



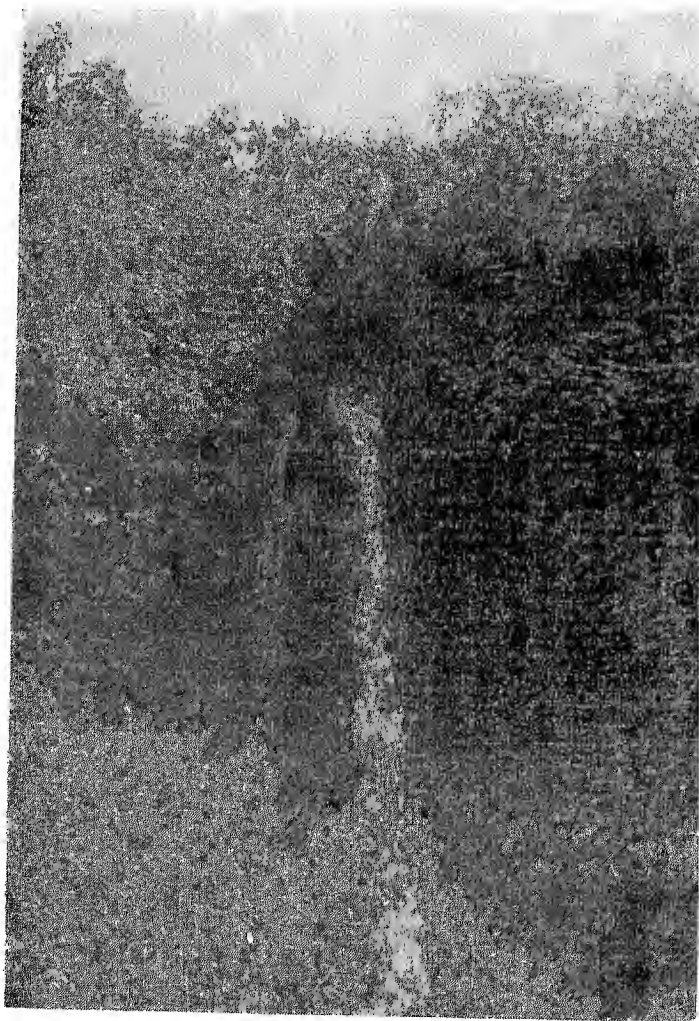
اؤلف بىن شوار موزمبىق قىل تىزىرھا عام ۶۸



مؤلف الكتاب (حامد سليمان) ومحمد سعيد المصور بين نوار انجولا
(قبل الاستقلال)



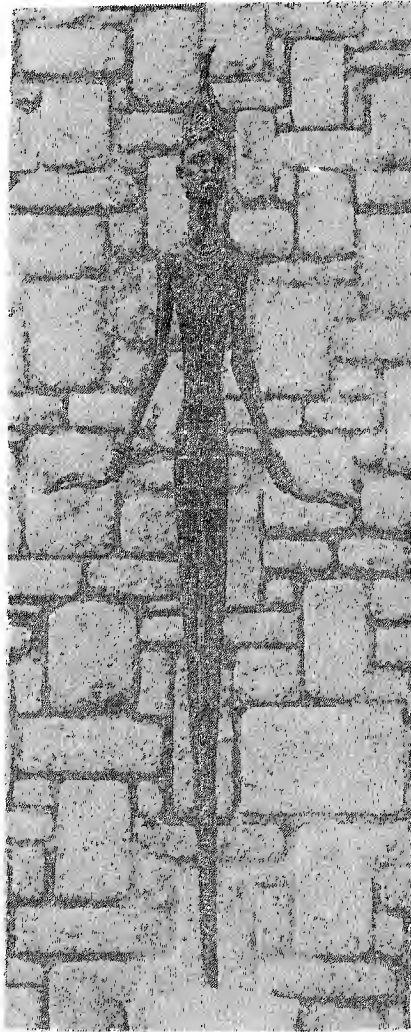
مهرجانات نيجيريا .. اللعب بالسيف بدلا من القصى



من هذه المنابع الصغيرة ٠٠ يتكون نهر النيل



السفور (والتفرنج) كان أسهل بين نساء أفريقيا ٠٠ منه في
الشرق العربي

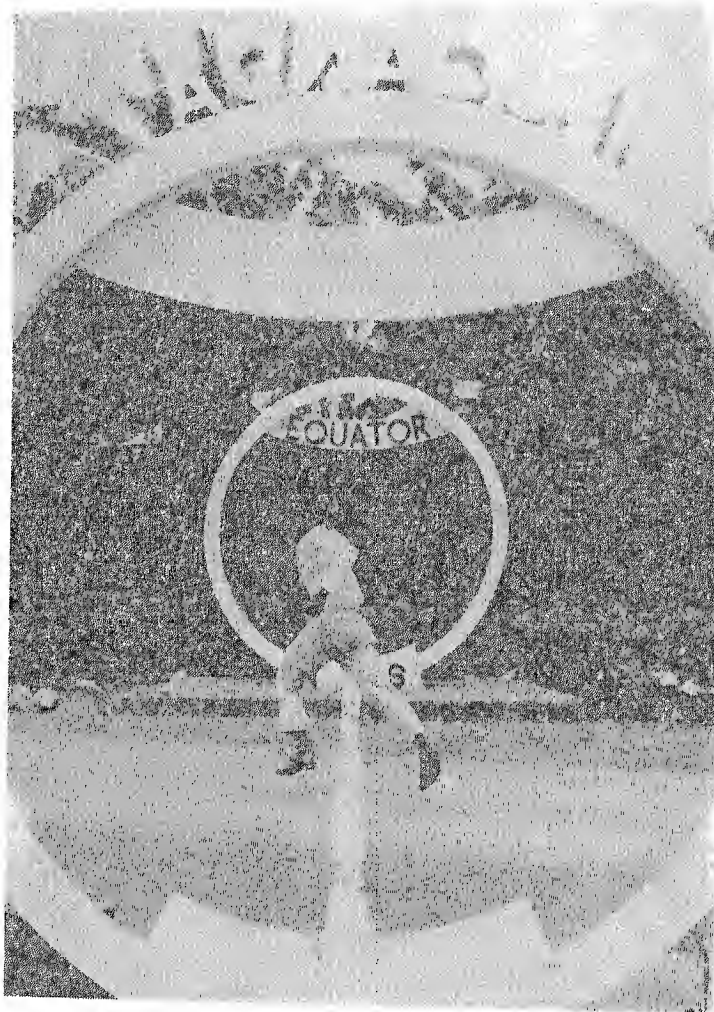


من الخشب الأيوانوس .. استطاع الفنان الأفريقي .. أن يشكل
أبداع التماثيل

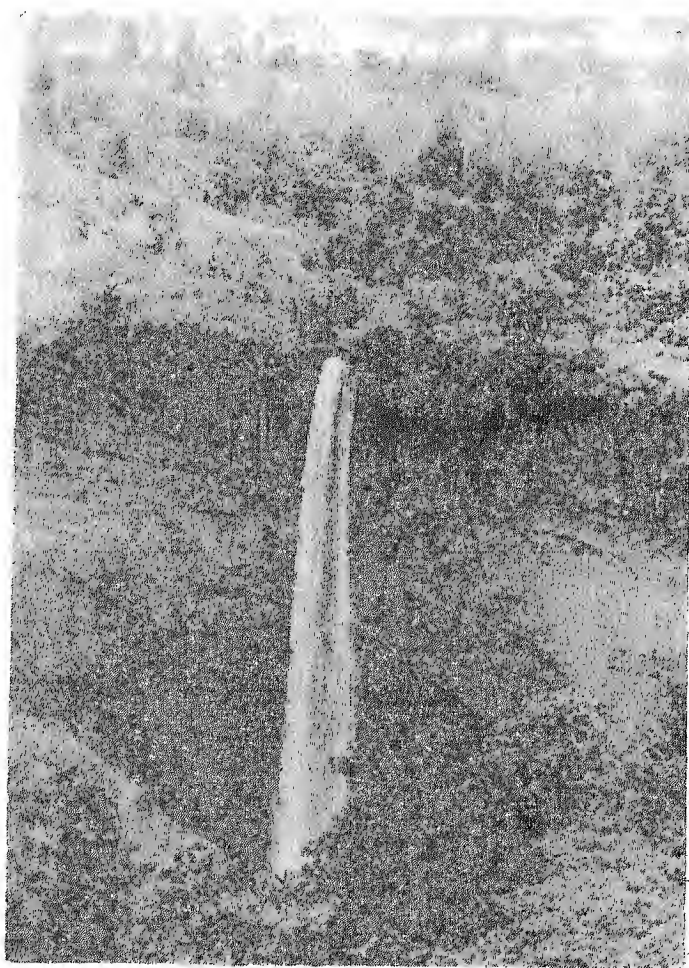


التدريب في أحد المواقع العسكرية بانجولا .. قبل الانطلاق للتحرير

(م - ١٧ - ١٠٠ يوم في أحراش أفريقيا)



هذا الرجل نصفه في شمال الكرة الأرضية .. ونصفه في جنوبها ..
انه يعبر خط الاستواء



أحد المنابع الرئيسية لبحيرة فيكتوريا .. ومنها يبدأ النيل
العظيم رحلته الخالدة



أحد أحفاد جنود الفزو المصرى لأوغندا أيام اسماعيل باشا ..
لم تبقى له سوى الذكريات .. و .. الطربوش



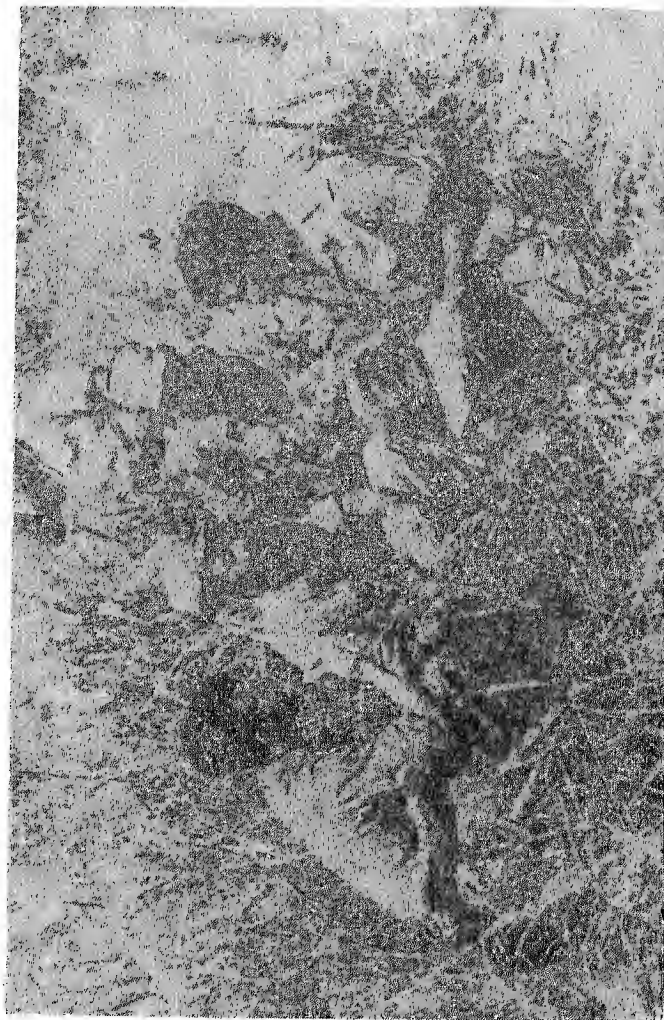
الانطلاق نحو التحرير بعد التدريب في أحد المواقع بموزمبيق ..
قبل الاستقلال



لقاء المؤلف مع ملك السلواء (في الوسط) ومن وراء حاشيته



المؤلف .. في الطريق إلى موزمبيق .. في قارب من جذع شجرة



وكان على المؤلف - مشار اليه بالسهم - قبل دخوله انجولا .. أن يرتدى الزي
المسكري ويتدرب على السلاح

الفهرس

٣	• • • • •	الاهـداء
٥	• • • • •	المقدمة
٧	• • • • •	المشهد رقم (١) عراه فى جنوب السودان
٢٧	• • • • •	المشهد رقم (٢) لقاء مع أغرب ملوك الدنيا
٤١	• • • • •	المشهد رقم (٣) السحر الأسود
٤٩	• • • • •	المشهد رقم (٤) أنا أفريقية •• اذن أنا حرة
٦٥	• • • • •	المشهد رقم (٥) صفحة من تاريخ مصر فى أحراش أوغندا
٧٥	• • • • •	المشهد رقم (٦) أعنف رقصة فى الدنيا
٨١	• • • • •	المشهد رقم (٧) مجتمع « الأكان » فى اشانتى
٩٥	• • • • •	المشهد رقم (٨) عندما شعرت « البرد » فى جهنم خط الاستواء
١١١	• • • • •	المشهد رقم (٩) نصف غرب أفريقيا •• مسلمون
١٢١	• • • • •	المشهد رقم (١٠) هنا ينبع نهر النيل
١٣٩	• • • • •	المشهد رقم (١١) رحلة هرب •• داخل أجمل رحلة قطار العالم
١٥٣	• • • • •	المشهد رقم (١٢) مغامرة فى أدغال أنجولا
١٧٣	• • • • •	المشهد رقم (١٣) مغامرة فى أحراش موزمبيق
١٩٩	• • • • •	المشهد رقم (١٤) عندما تدق طبول التحرير فى تنزانيا
٢٠٥	• • • • •	المشهد الأخير أفريقيا خارج الأدغال
٢٢٩	• • • • •	لقطات من الرحلة

٢٧٣

(م - ١٨ - ١٠٠ يوم فى أحراش أفريقيا)

رقم الايداع ١٩٩١/١٩١٥

الترقيم الدولى 5 — 2667 — 01 — 977 I.S.B.N.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب



إن القراءة كانت ولا تزال وسوف تبقى، سيدة
مصادر المعرفة، ومبعث الإلهام والرؤية
الواضحة .. وعلى الرغم من ظهور مصادر
حديثّة للمعرفة، وبرغم جاذبيتها ومنافستها
القوية للقراءة، فإنني مؤمنة بأن الكلمة
المكتوبة تظل هي مفتاح التنمية البشرية،
والأسلوب الأمثل للتعليم، فهي وعاء القيم
وحافظة التراث، وحاملة المبادئ الكبرى
في تاريخ الجنس البشري كله.

سوزله بارراء



Bibliotheca Alexandrina

0541702



مطابع الهيئة المد

الثلث ٢٠٠ قرشا